

ساحر الكتب
بربونيا
جريمة مملكة السمك
عمرو البدالي



عمرو البدالي

بربونيا



ليلة غبراء

وطئت أقدامهما أرضَ مطار القاهرة .. الساعة الثالثة فجرًا.. البردُ القارس يتسرّبُ إلى عظامِهما دون رادعٍ.. وقفا على باب الطائرة.. استنشقا نسيم الفجر.. تنفّسا كمًّا لم يتنفساه من قبل.. ارتعشت الأرض من تحتِهما وهما يَخْطُوان أولى خُطواتِهما عليها.. كالطفل لحظة ولادتِه .. تلك اللحظة التي يُفارِقُ فيها الدِّفءَ والأمانَ رَحِمَ أمِّه إلى عالم الكَذِبِ والفَناءِ.. إلى عالم الحياة .. الحياة الدُّنيا.. تلك الأرض التي طالما تحاكى عنها والدهما.. سرعان ما أتيا إليها بعد رحيله عن الحياة منذ أربعة أيامٍ فقط.. بعد ستين عامًا من عُمره قَضَى مُعظمَها رحَّالةً في كُلِّ أنحاءِ الكون.

بدأ والدُهما حياتَه كأيِّ شابٍ طامحًا لجمع المال وإثبات الذات بأيِّ مكانٍ بعيدًا عن وطنِه مصرَ .. هاجر إلى أمريكا منذ خمسةٍ وثلاثين عامًا، وانتقل من عملٍ إلى آخر حتى استقرَّ في أمريكا الجنوبية بالتحديد .. قرية جويانا .. تزوجَ، وأنجب ولدين، وحصلا على الجنسية الأمريكية.. عاش في منزلٍ صغير على ضِفاف المُحيط الأطلنطي حياةً هادئةً هانئةً .. لم يُدركْ ما يُخفيه له القَدَرُ.. لم يمرَّ عليه ثلاثُ سنوات إلا وحدثَ ما لم يتوقّعه قط.. حدَثَ ما قلبَ حياتَه رأسًا على عقبٍ.. اختفاء صديقه وجاره شوكاتو.. تغير بعدَه كثيرًا.. أصبح كثير الشُّرود.. أهملَ عملَه .. عاش في عُزلة بغرفتِه .. قضى أغلبَ أوقاتِه في القراءة على غير عادتِه وكأنه قد جُنَّ .. أو مَسَّه السِّحرُ.. أخذَ عقلَه .. حاولت زوجتُه مرارًا وتكرارًا معرفة سببَ تغيُّرِه .. حاولت جاهدةً إخراجَه من عُزلتِه المشؤمة.. تساءلت كثيرًا عن ولعِه المُفاجئ بالقراءة وبالكُتب التي لا تعرف حتى من أين جاء بكل هذه الكمية منها.. لم يَستجِبْ لها.. لم يُعِرْها أيَّ اهتمام.. لم يعد يهتمُ بأيِّ شيءٍ.. أهملَ مَظهرَه وطعامَه.. تغيَّر شكلُه في فترةٍ قصيرةٍ، وكأنه واحدٌ من أهل الكهف، أطلَّ على عالَمِهم بالخطأ.. اقتربت مُدّخراتُه وأموالُه على الانتهاء.. لم تحتمِلْ أكثرَ من ذلك .. انفصلت عنه وتزوّجت بغيره تاركة له الولدين .. كان ذلك شرطًا من الزوج الجديد، وسافرت إلى قريةٍ أخرى لتبدأ حياة جديدة بعيدًا عنهما .. حوَّطَ الأب عليهما .. اضطرَّ للعمل في الصيد ليبحث لهما عن قوتِ يومهما .. كان يخرج في الصباح الباكر بمركبِه الصغير ويعود ليبيع أسماكه بالسُّوق وهما ملازمان له طَوالَ اليوم.. وفي المساء ينهمك في قراءةِ الكتب غارقًا بين صفحاتِها كالغارق يبحث عن أيِّ شيءٍ يحمله لبرِّ الأمان .. استمرَّ الوضعُ هكذا كثيرًا.. إلى أن جاءت تلك الليلة .. المحفورة في ذاكرة الابنين.. كانت آخر ليلةٍ لهما في تلك القرية.. أخذهما والدهما بعيدًا على مركبٍ كبيرٍ والرُّعبُ يملأ وجهَه.. نظراتُ الرُّعب والقلق التي أطلّت من عينيه حينها عَلِقَت بذاكرتِهما مدى الحياة .. سافروا بعيدًا.. من قريةٍ إلى أخرى .. ومن بلدٍ إلى آخر.. رَحّالًا تتقاذفهم



الأمواج .. إلى أن وافت أباهم المَنيَّةُ على حين غرَّةٍ..

لم ينسَ والدُهما الكلمات الأخيرة التي نَطَقَها صديقُه شوكاتو قبيل اختفائه .. كان من بقايا شتات الهنود الحمر المُنتشرين بعدةِ قُرَى أمريكية .. صديقه الذي توارى بعيدًا تاركًا وراءه لُغزًا كبيرًا فمنزله المجاور ببابه المفتوح على مصراعيه، وفنجان القهوة الساخن بأبخرته الدافئة، وصوت مذيع الأخبار المُنبعث من تلفازه، جميعها يُنبئُ بتساؤلاتٍ متعددة .. ولكن.. لا أحد يدري أين ذهب؟ والغريب أن أحدًا لم يهتم باختفائه، وكأنه كلبٌ ضالٌّ رَحَلَ عن مدينتِهم فجأة..

تذكَّر كلماته جيدًا حين نَظَرَ بعينيه نظرته الأخيرة:

- أنتَ لا تعرف شيئًا.. لو كنتَ ستُكمل حياتك هكذا .. فخيرٌ لك أن تموت الآن.. أنت في ضلالٍ كبير.

ضحك والدهما حينها مُستهزئًا:

- ماشي يا مولانا .. ومنكم نستفيد يا شيخنا

كان تقريبًا صديقه الوحيد بتلك القرية .. ظَلَّ يقصُّ له دومًا عمًّا قرأهُ في تلك الكتب القابعة في مكتبتِه الضخمة .. طلب منه كثيرًا أن يُشاركَه قراءتها، لكنه لم يُعِرْهُ أيَّ اهتمامٍ .. لكن بعد اختفائه قادَهُ فُضولُه إحدى الليالي أن يبدأ بقراءةِ أحدِ الكُتب من مكتبة شوكاتو.. كأنه اشتاقَ إلى حكاياتِه المُثيرة التي كان يسرد فيها التاريخَ البشريَّ بشكلٍ مُشوِّقٍ أحبَه كثيرًا.

دَخَلَ المكتبة ليلًا وأضاء مِصباح السَّقف ليُرسِلَ ضوءُه الأصفر على هذه الكُتبِ الباليةِ العتيقة،

ابتسمَ مُتذكِّرًا شوكاتو وهو يُحدِّثُه ذات مرةٍ مُتأثرًا:

- إن لم تستطع قَوْلَ الحقِّ.. فلا تُصفِّق للباطل. إن لم تستطع أن تكون جميلًا فحاوِلْ أن تتجمَّل.

وأضعف الإيمان ألا تُجمِّل القبيح. في حياتِنا اليومية مُتناقضاتٌ عجيبةٌ؛ فحزب الباطل هم أكثر من يتكلمون عن الحقِّ، والقبيحون هم، مَن يرسُمون أكبر لوحة؛ لتشويه كل ما هو جميل في حياتنا

والمُنغمسون في الرذائل هم مَن يرفعون شِعار الفضيلة. رذيلةُ الأفكار أشدُّ ضررًا من رذيلة الأخلاق، والمُجاهرون بالعُبوس هم مَن يحاولون أن يعلموننا الابتسامة.. ابتسم حينها مُعجبًا بهذا الكلام الرائع.

- مَهلًا إنه ليس كلامي، إنني قرأتُه في صحيفةٍ كويتيةٍ لكاتب أعتقد أن اسمه مبارك الشعلان.

كان يُبهِرُه دائمًا بخِصبِ معلوماتِه ورأسه الذي كأنه موسوعةٌ مُتحرِّكة. وَقَعَ بصرُه على



أحد الكتب على المنضدة .. كان مفتوحًا وكأنه آخر ما قرأهُ قبل اختفائه.. قرأ عُنوانَه .. (حقيقة الهنود الحُمر).

طَوَى الكتابَ وخرجَ .. وبدأ قراءته بمنزله بنفس الليلة.. كان كتابًا قديمًا بدون اسم مؤلفه .. أوراقه باليةٌ عشّش اللّون الأصفر بين سطوره .. عَبَقُ أوراقِه المُتآكلةِ ملأ أنفَه .. وما إن بدأ فيه حتى .. ذُهِلَ لما قرأه.. أنهاهُ في ليلةٍ واحدة.. تتابعت لياليه مُنهمكًا بالقراءةِ من كتابٍ إلى آخر.. وكأنه جُذِبَ لفخٍّ لم يرغبْ في الخُروج منه أبدًا.. دوامة عميقة لا يسمعُ فيها سوى صوت صديقه شوكاتو يتردد على مسامعه:

- هنا تَكمُنُ الحقيقة .. ابحث عنها بنفسك.

ألقى شوكاتو عليه في آخر مرة التقى به على شاطئ المُحيط سؤاله الأخير.. وقت الغروب والشمس تغادر لبيتها المجهول.. سأله ناظرًا إلى الأفُقِ:

- مَن المايسترو المسؤول عن كل هذا الشرّ والخراب في العالم كلِه؟ مَن يُديرُ الشّرّ على هذه الأرض؟

نَظَرَ إليه حينها وابتسمَ مُربتًا على كتفه:

–لا تتسرّع، إنه ليس الشيطان.. لا تُجِب الآن.. تمهّل.

سافرَ والدُهما رحّالًا يدور بكل أرجاء الأرض باحثًا عن إجابةٍ لذلك السؤال.. بحث عن تفسيرٍ تتقبّلُه العُقول وسط تلال الكُتب العتيقةِ .. انعزلَ بابنيه عن الجميع .. وكأنه يرتعِبُ عليهما من المَجهول.. يبحث عن الحقيقةِ المَجهولةِ وسط هذا العالم المليء بالضّباب المَصنوع.. وصمه كُلُّ مَنْ قابَله بالجُنون والخَبَلِ، وابتعدوا عنه.

التصق الابنان بوالدهما بكل مكانٍ ذهبوا إليه.. عاشا في عُزلةٍ تامّةٍ .. كان مُصرًا على إخفائهما عن الجميع.. لم يعرف أحدٌ حتى اسميهما بأيِّ مكانٍ وَطِئوهُ .. حتى أنهما لم يلتحقا بأيٍّ من مراحل التعليم المعتادة .. تولّى هو تعليمهما بنفسه .. كان كل شيء بالحياةِ لهما.. الأبَ والأمَّ.. المُعلّمَ والصّديقَ .. كان ربُّهما الأعلى .. حتى غَرَبَت شمسُه عن حياتِهما .. فلم يجدا سبيلًا إلّا العودة سريعًا لمنشأِ والدِهما.. إلى الأرض والوطن .. إلى مصر.. تلك كانت وصيته.

إنها أول مكانٍ يُسافران إليه دون والدهما.. عادا غير مدركين ما يُخفيه لهما القَدَرُ.. خرجا من عُزلتهما لأول مرةٍ .. حطّما الجِدار الذي أحكمَ والدُهما بناءه حولهما.. ذلك الجدار الذي حاولَ كثيرون هَدمَه دون جدوَى .. سدٌّ منيعٌ أحكَمَ بنيانه.. لم يتحطّم إلا بإرادة ربِّهما حين أوصاهم بالفرار إلى موطنه مصر .. فجعلكه دكًا كأنه لم يكن ..

خرجا ليطلّا على دُنياهم الجديدة.. تلك الدنيا التي حُجبت عنهما طوال عمريهما دون أن يعرفا سببًا لذلك .. كانا شديدي الشّبهِ كلٍّ بالآخر.. ضخمي الجثة.. عريضي المناكِب .. حليقي الرأس.. بشرتيهما بيضاء اللّون.. عيونهما خليطَ من اللون الأزرق والأخضر.. تُثيرُ



الرِّيبة في نفس كل مَن ينظرُ إليها ..

اقتربا من ضابط الجوازات .. أمسك بجواز سفرهما.. جحظت عيناهُ حين قرأ اسميهما.. نظر إلى وجهيهما والرُّعب يقفز من عينيه، تلعثمَ كثيرًا والعَرَقُ يتصبَّبُ على جبينه وكأنه أدخل فجأةً إلى غُرفة حمَّام بُخارٍ حرارتُها عالية عنوةً .. تردَّدَ كثيرًا قبل أن يسألهما بحذرٍ شديد:

- اسم حضراتكم !!!!!!!!!!!!!!!!!!!!!؟

لم يقوَ على نُطق اسميهما المَكتوبين أمامه بجوازي سفرهما:

نَظَرَا إليه وعيونهما ممتلئتان بالدَّهشة.

ارتعشتْ يداهُ وهو مُمسكٌ بجهاز اللاسلكي يُحاوِلُ أن يُطلق سراحَ صَوتِه من بين أحباله الصَّوتيةِ المُعتصَرَة المُرتعِشة:

- إبعتلي قوات دعم بسرعة .. إبعتلي قوات دعم بسرعة.

انقلبَ المطارُ رأسًا على عقبٍ دون أن يعرف أحدٌ ما يجري .. اعتقدَ الجميعُ أنه قبَضَ على مُجرمٍ خطيرٍ أو أمسك بمُهرِّبٍ ببضائعه المَمنوعة للتوِّ.. امتلأ المطار بقوات الأمن شاهري أسلحتهم مُطلقين صيحاتِهم المُعتادة المُنتظمة.

دخل كبير مسؤولي الأمن بالمطار حينها واتَّجه إلى ضابط الجوازات المُرتعِش:

- فيه إيه يا سيادة الرائد؟

أعطاهُ جوازي السفر مَرعوبًا.. جحظت عيناه هو الآخر وهو يقرأ، ثم نَظَرَ إليهما سائلًا بحذرٍ

- اسم حضراتكم !!!!!!!!!؟

قاطعه أحدُهما:

- إيه الحكاية؟

- دى أسماءكم ؟

سألهما مَرعوبًا هو الآخر:

- أيوه أنا يأجوج. - وأنا مأجوج.

خير بقه فيه حاجة؟

تفوَّها باسميهما بمنتهى البساطة، بينما تأهَّبت قوات الأمن بشدة حين استمعت إلى هذين الاسمين تزايدت صيحاتهما .. وكأنهما أطلقا عليهم طلقات من الرصاص العشوائي .. صرخ حينها كبيرُ مسؤولي الأمن في جهاز اللاسلكي الخاص به:

- إبعتلى تعزيزات بسرعة.. إبعتلي المديرية كلها!!!!!!!!!!!!!!!

فَزَعٌ مُريبٌ انتشرَ كقنبلةٍ كيميائيةٍ تحصُدُ أرواحهم المُرتعشة الصارخة.. تعلمُ عُقولُهم جيدًا أنه لا مغيث لهم.. سَبَقَ السيف العزل.. جاء اليوم الموعود.. تراهم سكارى بعضهم يَموجُ ببعضٍ .. ومن هنا البداية.. بداية الحساب.. النهاية المحتومة.. انقلبت البلد كلها .. تصدرت أخبارهما الصفحات الأولى بكل الصُحف والمجلات صباح ذلك اليوم المشؤوم:

- القبض على يأجوج ومأجوج في مطار القاهرة الدولي

- ظهور يأجوج ويأجوج والساعات الأخيرة ليوم القيامة.

انتشرَ الخبرُ كالنار في الهشيم.. أصبح حديث كل الأوساط .. امتلأت شوارع مصر بكل محافظاتها ببائعي الجرائد .. استمع الناس إلى أصواتهم عالية تُجلجل كالرَّعد .. علت أصواتهم فوق الجميع .. لتنذر بالكارثة.. نفذت أصواتهم المُرتعشة إلى آذان الجميع ممن يستيقظون مبكرًا للذهاب إلى أعمالهم تاركين مَن يَغطُّون بالنوم لساعات متأخرة من النهار إلى القنوات الإخبارية فهي كفيلةٌ بإخبارهم بتداعيات ذلك الموقف الخطير.. تعالت صيحاتُهم بنفس الخبر.

- إقرا المصيبة يا جدع.. القبض على يأجوج ومأجوج يا جدع.. يأجوج ومأجوج في مطار القاهرة يا جدع..

سَيطَرَ الذُهول على الجميع ممَن وقعَ الخبر على مسامعهم للوهلة الأولى كمن يتلقى خبر وفاة والديه .. جحظت العيون.. فُتحت الأفواه.. بُهِتَ الذي كَفَرَ.. بُهتوا جميعًا غير مُصدِّقين آذانهم .. ودُّوا لو وُلِدُوا صُمًا .. أو ذهب سمعُهم قبل تلك اللحظة الفارقة.. هل حقًا ظهر يأجوج ومأجوج؟ هل يُعايشون أمام أعينهم يوم القيامة هكذا بكل بساطة؟ هل أُقفِلَ باب التوبة وانتهى كلُ شيءٍ؟

كارثة عظيمة مُباغتة تهبطُ عليهم ..

- شكلنا هنشوف أيام سودا.. هي أيام سودا.

رَدَّدَها بائع الخُبز في أحد الأفران لكلِّ زبونٍ يشتري منه الخبز.

توقَّفت حياتُهم فجأةً.. شلَّ تفكيرُهم.. نظروا إلى أموالهم في حسرةٍ.. ما قيمة المال الآن؟

هُدِمَت كلُّ الخُطط المُستقبلية.. هل سيشترون به عمرًا جديدًا بدلًا من أعمارهم التي ستنتهي بين لحظةٍ وأخرى.. انصرفوا جميعًا عن أعمالِهم، وعشَّش الحُزن والصَمت على الجميع..

تحوّلت الأفراح إلى مآتم.. والأكثر من ذلك توقَّفُوا عن دفن موتاهم .. ترك معظمُهم منازِلَهم وتهافتوا على شراء القبور .. وقف الأئمة بالمساجد الخاوية إلا من قليل.. ينادون بأعلى أصواتهم.. لعل كلماتهم تحظى بناصيتها ولكن .. صُمَّت الآذان وعَمِيَت القلوب.. وكأنها قرية خاوية على عُروشها، أو لحظات قليلة تفصلها عن هذا الهلاك



الجماعي .. تعالت أصواتهم بتلك الآية،

قال تعالى: (إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة.. ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) صدق الله العظيم

تهافت الكثيرون عبر الأزمان المُتتالية لكشف لُغز يأجوج ومأجوج .. أينَ هُمْ؟ ومِن أين يخرجون؟ وما موقع السَدُ المانع لهم؟ وما أشكالُهم الحقيقية؟

ذات صباح في عام 1992 خرج بعضُ علماء الولايات المتحدة الأمريكية ليُعلنوا للعالم في مؤتمر صحفي بعد 6 أعوام من دراستهم لأشكال الحياةِ تحت الأرض بأحدث الأجهزة .. اكتشافَهم لصبيٍّ غَريبِ الشكل في أحد الكهوف بالقُرب من جبال شيناندو الأمريكية .. كان على بُعد من سطح الأرض .. وصوَّروه وتحفَّظوا عليه بأحد المُختبرات العِلمية بولاية فيرجينيا.. وعلى الرَّغم من صغر حجمِه فطولُه لا يزيد عن ستين سنتيمترًا، ووزنُه خمسة عشر كيلوجرامًا فقد كان شديد الخطورة، فأسنانُه حادةٌ للغاية كأسنان أسماك القِرش المُفترسة، ويمتلك قوةً بالغة يَصعُبُ السيطرة عليه، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقط ، فرُدود أفعالِه كانت في غاية السُرعة .. ذو نوازع عُدوانية لأبعدِ الحُدود .. لم يتمكنوا من السيطرةِ عليه إلَّا بعد تخديرِه .. أطلقوا عليه الطفل الوطواط.. لاتساعِ عينيه .. ولأذنيه الطويلتين.. وبإجراء بعض التجارب عليه .. اكتشفوا أنه يرى جيدًا في الظلام الحالك، وأذناه كالرادار ترصدان كلَّ الأصوات مهما تكن بعيدة.. يتغذّى على الحشرات الحية .. وتوقَّع الكثيرون حينها أنه من نَسلِ يأجوج ومأجوج.. وكأن ذلك مؤشرٌ لهم أن قوم يأجوج ومأجوج يعيشون في أعماق الأرض .

كانوا على وشكِ إيجاد طريقةٍ للاتصال والتفاهُم معه إلا أنه اختفى من المُختبر، وهربَ في ظُروفٍ غامضة، وتصدَّرت صُورُه وأخبارُه حينها كُلَّ الصُحف المحلية والعالمية بصفحاتِها الأولى:

- المخابرات الأمريكية تُطارِدُ أخطر طفلٍ في العالم.

- الطفل الوطواط .. هل ينتمي لسُلالة يأجوج ومأجوج؟

ولم يُعثَر له على أيِّ أثرٍ بعدها تاركًا وراءه تساؤلاتٍ كثيرةً تُضاف إلى ذلك اللُغز الذي حيَّرَ البشريةَ بأكملِها.

مَرَّ أكثر من يومين انقلبَ فيهما حالُ الناس تمامًا..

جلس يأجوج ومأجوج في محبسهما.. تلك الغرفة الزُجاجية بمُديرية أمن القاهرة.. خضعا للمُراقبة طَوال يومين.. وكل ما يخطر ببالهما .. لماذا يفعلون ذلك بهما؟ كانا مستعدين لمواجهة مخاطر كثيرة، لكن والدهما أخبرهما أن أمانهما في مصر.. فلماذا يشعران بالخطر أكثر الآن؟

على الجانب الآخر اجتمعَ رجالُ الأمن بمبنى الوزارة .. كل القيادات مع وزير الداخلية



تباحثوا تلك الأزمة، والحلّ اللازم للخروج بسلام من تلك المُصيبة .. استمرّ اجتماعُهم لأكثر من ثمانٍ وأربعين ساعةٍ دون أن يغمض لهم جفنٌ .. لم يصلوا لأيّ حَلّ للأزمة، وأجّلوا اجتماعهم مرةً أخرى بعد التحقيق المباشر مع الاثنين .. خرج بعدها اللواء السمني مُسرعًا إلى مكتبه لتنفيذ ما اتفقوا عليه بعد كل هذه المباحثات اليائسة..

كان يعلم جيدًا أن الشخص الوحيد القادر على التحقيق معهما دون أن يهتزّ له جفنٌ ..

هو الرائد فاروق طلعت المرجوشي.. لن يقبل أيّ ضابطٍ بالخدمةِ تولي تلك المهمة والدخول عليهما في غرفتهما الزجاجية .. سيخافون جميعًا ويُحطّمون أوامره، وربما يقدمون استقالات جماعية.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يعتمد فيها اللواء السمني على فاروق ويسند إليه مثل هذه القضايا الشائكة .. كم من المرات التي أثبت فيها المرجوشي كفاءته! وكم من الألغاز التي صَعُبَ على غيره حَلُّها ومن اللحظات الأولى للتحقيق!

لم ينس اللواء السمني تلك القضية التي بثت الرُّعبَ بنفوس المتابعين لها.. القضية التي شغلت الرأي العامّ مدةً طويلةً .. تلك التي أثارت حيرته هو شخصيًا.. لم ينسَ تلك الغرفة رقم 13 بمستشفى القصر العيني الجامعي.. الغرفة التي نُسجت من حولها الإشاعات والأساطير.. أصبحت حديث الجميع فترةً ليست قصيرةً.. جريمة قتل مكتملة الأركان لرجلٍ مجهول الهُويّةِ في غرفة نُسِجَت حولها الأساطير.. لم يُعثَر على هُويّة المجني عليه، وكادت أن تُسجّل القضية ضد مجهول خاصةً لخوف رجال التحقيق من الاستمرار بتلك القضية أو التحقق في أمر هذه الغرفة المشهورة بأنها مسكونةٌ بالعفاريت والجِنّ.. كانت تلك القضية هي أولى القضايا التي عرفَ فيها اللواء السمني كفاءة المرجوشي وذكاءه .. تولّى التحقيق في لحظاتها الاخيرة قبل غلق ملفّ القضية وتقييدها ضدّ مجهول .. طالبًا منه أن يُعطيه فرصة لكشف غُموض القضية .. دار في مكتبه بالمديرية التحقيق مع كل شهود العيان، وكل مَن لهم علاقة بالحادثة.. استمع إلى شهاداتِهم برويّةٍ.

قصّت عليه الممرضة إسعاد قصة تلك الغرفة المخيفة والرُّعب يكاد يقفز من عينيها:

- من أول يوم ليا في المستشفى دي والكل بيحذرني إني أقرب من أوضه 13.. مهما يحصل .. كانت الأوضة مقفولة ديمًا بقفل على الباب وبجنزير حديد ملفوف حوالين بابها.. كانت الدنيا ماشية عادي مفيش أي حاجة مش طبيعية لحد ما أخدت شيفت بالليل.. وبقيت ببات في المستشفى كتير .. فضولي أخدني قدام الأوضة .. كنت عاوزة أعرف إيه جواها يعني.. معرفتش أفتح الباب .. ساعتها شافتني زميلة ليا اسمها منى لطمت على وشها وسحبتني بعيد وقالتلي إن الأوضة دي مسكونة بالعفاريت، ضحكت ومصدقتهاش، وفي تاني يوم قررت إني أدخلها بالليل، وجيبت مفك فتحت بيه القفل اللي على الباب والقفل اللي قافل الجنزير الحديد ودخلت وياريتني ما دخلت..

رَمَقها فاروق بنظراتِه الثاقبة بقوةٍ غير مُصدِّقٍ روايتها تلك منذ اللحظة الأولى، ولكنه أعطاها إحساسًا زائفًا بأنه يُصدِّقُها. ابتلعت ريقَها واستكملت حكايتَها مرعوبةً:

- أول ما دخلت الباب إتقفل جامد، والنور إتطفى، حاولت أولعه تاني مولعش.. إتهزت الأوضه جامد أكن المستشفى بتنهد، وسمعت حد بيهمس في وداني إنه هيحرقني حية .. بعدها الباب إتفتح، طلعت أجري وأنا مرعوبة .. ومن ساعتها مقربتش تاني ليها.

وتلك ممرضة أخرى تخبره بقصةٍ مُشابهةٍ لقصتِها، لكن العفاريت تحرَّشوا بها هذه المرة، وكادوا يغتصبونها، وغيرها من الروايات التي مَلَّ الاستماع إليها.

ذكاؤه وفِطنته المعهودة قاداه للحقيقة الكامنة .. اتجَهَ مُصاحبًا قوةً من القسم، واقتحمَ تلك الغرفة دون تردُّدٍ .. غرفة 13.. من غير أن يهتزَّ له جفنٌ.. ووَجَدَ ما توقَّع .. غرفةً سريةً خلف حائط تلك الغرفة بها كمية كبيرة من المخدرات والأدوية المُهرَّبة .. قبض على مدير المستشفى وبالتحقيق معه انهارَ، واعترفَ بجريميّه كاملةً .. أقرَّ بأنه كان يدير تلك الغرفة بتجارةِ الأدويةِ المُخدِّرة، وكان يُساعِدُه في ذلك بعض الممرضات، ومنهنَّ المُمرضة إسعاد التي ساعدت على انتشار قصة العفاريت الوهمية التي تسكن الغرفة حتى لا يقترب منها أحدٌ خاصةً أنه كان يدخل ويخرج منها أثناء الليل فقط .. وأن القتيل هو أحد الرجال العاملين معه في توزيع تلك الأدوية وبيعها، جاءه ذلك اليوم المشؤوم طامعًا في مبلغ كبير وإلا سيكشف أمرَه، فاضطرَّ لقَتلِه ونَقلِه إلى تلك الغرفة حتى يبدو الأمر أنه مِن فِعلِ العفاريت.. اكتملت أركان القضية في ملفٍّ كاملٍ، وُضِعَ أمام اللواء السمني .. نَظرَ حينها إليه نظرةً لا ينساها المرجوشي.. وكأن عينيه تنطقان بإعجابٍ شديدٍ:

- يا ريت كل الضباط زيك يا فاروق!

كان اللواء السمني يعرف جيدًا أن يأجوج ومأجوج ليسا شخصين مُنفصلين بذواتيهما، بل إنهما جماعتان كبيرتان أعدادهما مهولة .. قبيلتان .. هذا ما أصَرَّ عليه شيخ الأزهر في اجتماعِه بمكتب الوزير:

- ياخوانا يأجوج ومأجوج إيه بس.. ربنا سبحانه وتعالى إدانا العقل عشان نفكر بيه .. دول مش شخصين، دول جماعتين، والرسول علية الصلاة والسلام أخبرنا بكده، ده أمر يقيني.

وعلى الرغم من حديثه المُطمئن إلى حَدٍّ ما، لكن ما يُدريهم إن كان الاثنان مِن قوم يأجوج ومأجوج فعلًا؟ أم أنهم جميعًا يحملون هذين الاسمين .. وبظهور الاثنين تَظهَرُ بعدها جماعتاهما .. وإن كان غير ذلك، فلماذا يحملان هذين الاسمين بالذات؟ وهل هناك على وجه الأرض مَن يُطلق على ابنيه هذين الاسمين؟

أسئلة كثيرةً فشلوا في إيجاد إجابتها .. كان اللواء السمني واثقًا بفاروق المرجوشي.

اشتُهر فاروق وسط زملائه بأنه ميت القلب.. جريءٌ، شُجاعٌ.. ذكيٌ للغاية.. قادرٌ على حلِّ لُغز أيِّ قضية .. ذاعت شُهرتُه في قضايا القتل .. ومهما يكن الفاعل مجهولًا والقضية معقدةً يستطيع هو بحُنكتِه وذكائه فَكَّ شفراتها والإتيان بالفاعل في أيامٍ معدودة.

لمعت عينا المرجوشي وهو يتلقَّى التكليف بذلك التحقيق من اللواء السمني مباشرة .. كان ينتظرُه على أحَرَ من الجمر.. لم يكن فاروق مجرد ضابط مباحثٍ تقليديٍ.. أحبَّ عملَه كثيرًا.. عَشِقه .. لذلك كان دائمًا طيِّب الشمعة .. بالأخص بتلك القضايا المُعقدة ..

تذكَّر فاروق حينها خاله - رحمة الله عليه - مُبتسمًا.. كان يُحبُّه جدًا.. وأحبَّه أكثرَ بعد موت والديه .. كان يذهب ليبيت في منزله ويقضي معه اليوم بأكمله .. خصوصًا تلك الفترة التي تزوَّج بها والده بتلك السيدة الصغيرة التي تصغره بعشرين عامًا .. لم يعترض حينها على زواجِه على الرغم من تعلُّقِه بوالدتِه ورفضه أن يحل محلَّها امرأةٌ أخرى، فقد أحبَّ لوالده أن يفعل ما يريد .. كان حينها طالبًا بكلية الشرطة .. وانشغل خالُه كثيرًا بالأبحاث والدراسات التاريخية القديمة حينذاك.. امتلأت مكتبتُه بالكثير من الكتب الخاصة بالتاريخ البشري.. كرَّر له دائمًا بمناسبات مختلفة والفخر يملأ عينيه:

- يا فاروق يا بني مصر دي أم كل الحضارات.. إقرا التاريخ هتلاقي إننا أقدم وأعرق حضارة في الدنيا كلها.

كان فخوزا بمصريَّته.. أيضًا اهتمَّ بالبحث بالأمور الغيبية .. كم من المرات تحدَّث مع فاروق عن حقيقة يأجوج ومأجوج كما يتخيلها هو! لم ينسَ تلك المرة التي أجلسه أمامه ليخبره بالسِّرِّ الخطير الذي توصل إليه.. لم ينسَ بريق عينيه حينها .. كان مُقتنعًا أن هؤلاء القوم لا وجود لهم على سطح الأرض.. وأنهم يعيشون على كوكب آخر خارج مجموعتنا الشمسية المنتمية لمجرة درب التبانة.. أرض أخرى بمجموعة شمسية أخرى.. كانت المرة الأولى التي يعرف فيها فاروق أن هناك شموسًا أخرى كثيرة غير تلك الشمس التي نعرفها.. اكتشف خالُه أن رحلة ذي القرنين ذلك الملك المعروف المذكور سيرته في القرآن الكريم كانت رحلةً فضائية لتلك الأرض البعيدة خارج كوكبنا نحن.. وبَرْهَنَ على اكتشافِه بتلك الكائنات الفضائية التي تظهر بين الحين والآخر بأطباقِها الطائرة .. وعلى الرغم من عدم اقتناع فاروق بتفسيره ذلك، فقد كان مُعجبًا جدًّا بخالِه، وبطريقة تفكيره.. تمنَّى كثيرًا أن يمتلك قُدرته تلك في التفكير .. وذكاءه الدافع له دائمًا ليشذَّ عن كل ما هو تقليديٌ أو مُسلَّم به ..

ابتسمَ حين تذكَّر تلك المرة التي طلب فيها منه أن يكتب له كلمة مختصرة بحفل تخرُّجه كما يفعل كل المدعوين .. كتبَ له جملةً واحدةً أحبَّها فاروق كثيرًا .. عَشِقها على الرغم من تعجُّب كل من قرأها .. كان يحتاج لتفسيرِها دائمًا حتى لا يفهم معناها خطأ:

- فاروق طلعت المرجوشي.. حين يصبح الشُّذوذُ مألوفًا..

ضَحِك كثيرًا حين قرأها .. لكنه فهمها .. الشُّذوذ عن المألوف.. الشُّذوذ عن التقليدي..



الشُذوذ عن المُتعارَف عليه .. الشُذوذ عن الآخرين .. اعتزَّ بها كثيرًا..

وصل فاروق المرجوشي إلى غرفة التحقيق بعدما تلقَّى التكليف من اللواء السمني مباشرة، جلس معهما غير خائفٍ تمامًا.. استمرَّ التحقيق داخل تلك الغرفة الزجاجية أكثر من ثلاث ساعات.. اثنان وثالثهما المرجوشي.. سألَ كثيرًا، وحصل على إجاباتٍ لم تخطر على باله .. كان فاروق ضخم الجثة يبلغ من العمر ثلاثين عامًا .. لم يتزوج حتى الآن.. فمَنْ تتحمَّل حياته المليئة بالأخطار؟! كم من المراتِ اقتربَ منه الموت برصاص المجرمين الغادر! لم يَهَبِ الموتَ قط .. ميت القلب كوالده طلعت المرجوشي

كان يُشبِهُه في كلِّ شيءٍ.. حتى بطريقة مَلبَسه وألوانه المُفضلة. استلم منه الراية بعد خُروجه من الخدمة منذ سبعة أعوام.. كان العدو الأول للخارجين على القانون .. والمجرمون القُدامى يحفظونه ظهرًا عن قلب، هو ووالده الذي عَكَفَ على تربيتِه بطريقتِه حتى أصبح محلَ إعجاب الجميع.. حتى بعد زواجه الذي انتهى بمأساةٍ كبيرةٍ حينها .. لم ينكسر أو ينحني ظهرُه.. وَقَفَ كالأسد بصدرٍ مفتوحٍ مُتقبلًا قضاء الله.. ولم يتأثر كثيرًا بفِراق زوجتِه الثانية وابنتِه الصغيرة التي لم تكمل عامها التاسع حينها في ذلك الحريق الضخم الذي التهَمَ منزلَه في غيابِه.

عاشا في منزل جديد معًا.. كانا كصديقين.. وقف فاروق بجوار والده الجريح .. أدرك حينها أن اعتزازه بنفسه سيمنعه من إظهار أيِّ ضعفٍ أو حزنٍ على مُصيبته .. تعوَّد أن يفعل له كل شيء .. مُخففًا عنه .

استمرَّ التحقيق ثلاث ساعات والجميع مُترقِّبُ النتيجة.. خرج بعدها فاروق إلى مكتب اللواء السمني مباشرة .. ليُلقي إليه القنبلة غير المُتوقعة .. جحظت عينا اللواء السمني .. لم يخطر على باله ما يسمعه من فاروق .. رفع سماعه التليفون قلقًا:

- أيوه يا بني .. أطلبلي وزير الأوقاف فوزا.

مرَّت لحظاتٌ من القلق والخوف إلى أن رنَّ الهاتف، فأمسك اللواء السمني السماعة بيده المُرتعشة:

- أيوه يا سيادة الوزير .. لا مينفعش في التليفون .. لازم اجتماع عاجل دلوقتي في الوزارة.. أيوه لازم حضرتك تكون موجود.. الموضوع خطير للغاية.

كان فاروق رجلًا بمعنى الكلمة .. لم يهتزَّ لما عرفه وتوصل إليه من هذا التحقيق. نَظَرَ للواء السمني بثقةٍ شديدةٍ وكأنه أدَّى مهمته على أكمل وجهٍ:

- تؤمرني بحاجةٍ تاني يا فندم.

- اتفضل إنت دلوقتي.

أعطاه التحية العسكرية وخرجَ .. رنَّ هاتفه المحمول .. والدُه يتصل به .. رَدَّ عليه سريعًا، يعلم أنه يرغب في الاطمئنان على نتيجة التحقيق.



- أيوه يا حج طلعت.

- أيوه يا فاروق يا بني.

انتابه قلقٌ شديدٌ، فصوتُ والدِه يرتعش على غير عادته.

- مالك يا حج؟

ردّ والدُه بصوتٍ مُختنِق:

- الحقني يا فاروق.. الحقني.

أُغلقَ الخطُّ بعدها .. انتاب فاروق حالةٌ من الفزع على والدِه .. خرج كالمجنون من المديرية .. حاول الاتصال به كثيرًا دون جدوى.. كاد يصطدم بسيارته أكثر من مرة لفَرْطِ سُرعته .. اعتصر الألم والقلق قلبه على والده .. لاحظ إحدى السيارات الجيب الكبيرة سوداء اللون تقتفي أثره.. وعلى الرغم من سرعته العالية لم يفقدوا أثره مُطلقًا.. لم يُبالِ المرجوشي بهم قط، فهو مُعتاد على ذلك.. زاد من سرعته أكثر وأكثر .. الوقت غير مناسبٍ لمُطاردة عنيفة تنبئ بمغامرةٍ جديدةٍ تنتهي بالقبض على مجرمين جُددٍ.. فوجئ بسيارة أخرى لها نفسُ الشكل واللّونِ أمامه تقف فجأةً فاضطر للوقوف قبل أن يصطدم بها .. أمسكَ مسدسه سريعًا لكنهم كانوا أسرع منه .. رجال ضِخام الجُثث ببدل سوداء اللّون ونظاراتِ شمس كبيرة تُخفي معظم وجوههم.. حُفرت أشكالُهم في ذاكرته .. كسروا عليه شباك سيارته .. خبطوا رأسه من الخلف بجسد صلب .. أظلمت الدنيا في عينيه.. غاب عن الوعي .. غرقت عيناه في الظلام وكأنه في ليلة حالكة السواد غاب عنها القمر.. ليلة نشط فيها كل راغبي الشرّ والظلام .. ليلة شديدة الظُّلمة.. ليلة غبراء.



بربونيا

فتح فاروق المرجوشي عينيه بصعوبة.. خيالات متتالية لسِرْبٍ من الطيور تتلاعب أمامه .. لم يقوَ على الرؤية بوضوحٍ .. أصوات العصافير تُغرِدُ ممتزجة بهدير الأمواج المتلاحقة تملأ أذنيه.. حاول أن ينهض واقفًا.. نظر حوله.. إنه مُلقى على أحد شطآن البحر.. أمسك رأسه مُتوجعًا من أثر الخبطة..

صُداعٌ شديد يتملك مُؤخرة رأسه .. يزداد كلما تحرك.. لم تقوَ قدماه على حَمْلِه أكثر من ذلك .. سقط أرضًا تغمره الأمواج المتتابعة .. غاب عن الوعي مرةً أخرى .

وَقَفَ عزيز شريف كعادته أمام كوخه الصغير.. استنشقَ الهواء النَّقيّ في هذه البُقعة التي اختارها بنفسه بعيدًا عن المدينة.. وراء تلك التَّبة الرملية العالية التي تفصله عن الجانب الآخر من المدينة.. لم يهتم بتلك الروايات والأساطير المنسوجة حول ذلك النَّفق المَهجور بأطراف مدينتهم.. لم يَخَفْ من نَصْبِ كوخه بالقرب منه.. لم يخشَ تلك الأصوات التي يسمعها كل ليلةٍ .. كان عزيز شخصًا دؤوبًا يتابع عمله ويخلص له بكل دقةٍ.. أصغر عالم فيزيائي تُعيّنُه الدولة ليتابع لها تجاربها العلمية وأبحاثها في مجال الثروة السمكية وكيفية تطويرها واستخلاص العناصر المعدنية .. وعمله كان يتطلب المتابعة عن قُربٍ، فكان ذلك الكوخ أشبه بمصلحة حكوميةٍ أو بمعنى أكثر دقة (كوخ الأبحاث العِلمية) كما كتب عليه بأعلاه.. مكث عزيز ممسكًا بالتلسكوب الخاص به مُدقِّقًا النظر على مياه البحر كعادته في الصباح الباكر.. يتابع منسوب المياه ولونها ومتغيرات أخرى كثيرة يُدوِّنُها على حاسوبه الإلكتروني الخاص داخل كوخه آخر كل يوم عمل.. كان الكوخ يبعد عن الميناء بمسافةٍ لا تقلُّ عن ثمانية كيلومترات .. يرى السفن الضخمة ترسو على رصيفه على مدى البصر.. بينما ارتكز الصيادون بالقُرب منه بعد حوالى كيلومتر واحد .. يتابعون أعمالهم .. يعدون شباكهم للصيد كالمعتاد.. يخرجون بمراكبهم الصغيرة ويعودون .. لا يراهم إلا إذا صَعَدَ أعلى تلك التَّبة المرتفعة .. كان محبوبًا لديهم.. اعتاد كل صباح إلقاء التحية الحارة عليهم .. ثم العودة لمُباشرةِ عَمَلِه .. اعتادوا الغناء طيلةَ نهارِهم.. وكأن غناءهم يزيد من جَلَدِهم وتحمُّلِهم لعناء العمل تحت أشعه الشمس الحارقة طوال النهار..

ابتسمَ كبير الصيادين العم أحمد البالغ من العمر سبعين عامًا مُلوّحًا بكلتا يديه لعزيز الواقف على تبة الرمال العالية بالقُرب منهم، وحيّاهُ على طريقته الخاصة وكأنه يُغني له موالًا:

- يا عزيز يا غالي.. يا عزيز ياللي بنحبك.. يا اللي جيت جارنا.. ياللي جيت جارنا وأنستنا .. نورتنا يا عزيزيا غالي .. من يوم ماجيت .. من يوم ما جيت .. من يوم ما



جيت وإحنا!!!!!!!!!!!!!!! بنحبك ..

هلّل له باقي الصيادين مُشيرين إلى عزيز شريف الذي بدوره ابتسمَ لهم جميعًا وأرسل إليهم التحية بيديه، وعاد ليبدأ عمله اليومي بجوار كوخه .. اختفوا عن نظره لكن غناءهم يصل إلى مسامعه يُطربُها .. جلسَ على طاولتِه مُدندنًا معهم بالغناء.. كانوا يعشقون أغنية وديع الصافي .. يتغنون بها دائمًا كل صباح:

- عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس

عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس ..

عا الرمل الدايب كتبنا

شوق الحبايب دوبنا

وانشاالله توصل مراكبنا

الـ فيها أهالينا و حبايبنا

والفرحة تكمل .. يا ريس

عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس

كان صوت غنائهم نهارًا يُهوّن عليه وحدته ليلًا في ذلك المكان المُخيف..

لم يعرف أحدٌ لماذا يبيت في هذا الكوخ ليلًا.. كان يبرر ذلك أنه غير متزوجٍ ووالداه متوفّيانِ، ومنذ وفاة جدته التي أحبَها كثيرًا وهو يكره العودة إلى منزله بوسط المدينة.

وَضعَ له سيد القهوجي كوب الشاي المُعتاد كل صباح أمامه:

- صباح الفل يا باشمهندس والله إنت منورنا.

- صباح الخير يا سيد.



- الشاي المظبوط يا باشا.

- شكرًا يا سيد.

- بقول إيه يا باشمهندس .. يعني لمؤاخذه يعني ما تقرب الكوخ ده مننا بدل الحتة المتطرفة دي واهو تبقى وسطنا وتحت عنينا .. متقلقش مش هنضايقك والله.

كانت عيناه قلقتين من ذلك النفق القريب منهما.. يختلس النظر إليه بخوفٍ ملحوظ، ضحك حينها عزيز:

- مش هتسيبك من الهلاوس دي بقه يا سيد؟

- ربنا يجعل كلامنا خفيف عليهم يا باشمهندس.

- يا بني هم مين؟ طب ولو فرض إنهم موجودين .. هيعملوا إيه يعني؟

ارتبك سيد وكأنه قد لدغه عقربٌ وانصرفَ سريعًا:

- طب يا ريس براحتك .. سلامو عليكو.

ابتسمَ عزيز وعاود عمله والنظر من خلال التليسكوب هامسًا:

- عجايب تتحط في زكايب .. تتفرج عليها الأشولة.

كان عزيز مولعًا باستخدام الأمثال الشعبية وإدماجها في حديثه دائمًا .. تعلّم تلك الصفة من جدته رحمة الله عليها.. سيدة بسيطة عكفت على تربيته بعد موت والديه في حادثةٍ أليمةٍ وهو صغير السّنّ.. أحبّها بشدة .. تأثّر بها كثيرًا بحياته.. وعلى الرغم من مكانته التي وصل إليها بالمجتمع فقد كان يعتزُّ كثيرًا بتلك الصّفة.

تذكّر عزيز حينما كان طفلًا ذا ستّ سنواتٍ .. حين رَقَدَ مريضًا بالمستشفى يُعالَجُ من آثار عضةِ كلبٍ مُفترس .. كاد يموتُ وقتَها.. وجدَ جدّته جالسةً بجوار سريره وقتما أفاق .. هَمَسَ لها وكأنه يخبرها بسِرٍّ خطيرٍ مُحاوِلًا ألا يسمعه والداه:

- تيته .. تيته..

- نعم يا نين عين تيتا.

- يا تيته.. ديل الكلب بيتعدل .. بيتعدل يا تيتا .. أنا شفته بنفسي.

ضحكت جدته حينها بهيستريا.. لم تستطع أن تكتُم ضحكتَها.. فهمت ما يرمي إليه عزيز.. استخدمت هي أمامه مرارًا وتكرارًا المثل الشعبي الدّارج:

- ديل الكلب عمره ما يتعدل.

ولم تلتفت أن براءته ستجعله يأخذ المثل بمعناه الحرفي. ويبدو أنه حاول إثبات عكس ذلك عمليًا .. وكانت النتيجة أن عضّه ذلك الكلب المُفترس .. حاولت بعدها أن تتجنّبَ ذِكرَ الأمثال الشعبية أمامه إلا بعد تمريرها على رأسها أولًا منعًا لأي خطرٍ يقعُ فيه.

ارتبطَ عزيز بجدته.. عانى كثيرًا بعد موتها .. لم يُطِق العيش بنفس المنزل الذي يُذكّرُه بها دائمًا.. موتُها كان مصيبةً كبيرةً له أكبر من فِقدان والديه .. أغلقَ المنزل واستراح كثيرًا حين قرّر المبيت بمكانِ عمله ..

وعلى الرَّغم مِن بُعد الكوخ نسبيًا عن الصيادين فقد كان يشعر بالألفة لمجرد سماع أصواتِهم تُغني طوال النهار، كان يُدوّنُ مُلاحظاته في أوراقٍ بجوارِه..

التفت عزيز إلى شيءٍ ما أمام النَّفق.. دَقَّق النظر.. انتفضَ حين رأى جثة فاروق مُلقاةً على الشاطئ تتابع عليها الأمواج أمام النفق..

أسرعَ إليه جريًا.. تلمّسه حذرًا.. حاول إفاقته.. استمعَ إلى دقَّات قلبِه.. ما زال ينبض بالحياة.. فَتَحَ المرجوشي عينيه وأغلقهما عدة مراتٍ مُحاولًا استعادة وعيه دون جدوَى.. استشعر عزيز حجم الخطر الذي قد يكون تعرّض له هذا الشخص.. لعله تعرّض لحادثة كبيرةٍ كالغرق أو أيّ شيءٍ آخر أوصلته إلى تلك الحالة المُزرية.. حَمَلَه عزيز ودخلَ به إلى الكوخ.. تركه على سريره بعد أن أبدله ملابس أخرى بملابسه المبتلة من دولابه الخاص.. خرج بعدها ليتصل بصديقه الدكتور شلبي .. لم تمرَ عليه ساعةً واحدة إلا وكان شلبي يكشف عليه بنفسه بالكوخ مُطمئنًا عزيز ..

- القلب تمام .. النبض تمام.. متقلقش.. عندك غطا تقيل؟

- أيوه يا شلبي.

- طيب غطيه كويس وسيبه يرتاح لحد ما يفوق لوحده وعليك بالحاجات السخنة .. شاي .. شوربة.. ينسون .. نسكافيه .. بقولك إيه عندك أكل أحسن أنا جعان قوي؟

- جيتك يا عبد المعين تعيني لقيتك يا عبد المعين تنعان.

قالها مستهزئًا بكلامه.

- أمال عاوزني أعملك إيه يا سي عزيز .. الراجل زي الفل .. وبعدين إيه عبد المعين وتعني وتنعان.. أنت يا بني مش هتبطل طريقتك البلدي دي في الكلام!

- بلدي في عينك، يلا سكتك خضرا .. طريقك زراعي.

- طب والأكل؟

- كل في شغلك إجري.

تركه وانصرف مُتهكّمًا:

- والله يا أخي مش فاهم أنا إنت إزاي من صفوه المجتمع؟

وَضَعَ عزيز غطاءً كثيفًا فوق فاروق الفاقِد للوعي .. تركه ليرتاح وأغلق عليه باب الكوخ .. عاد لمتابعة عمله بالخارج.. مرّ النهار بأكمله وتحوّل المكان الذي كان يَمتلئ بأصوات الصيادين نهارًا إلى منطقة مهجورة موحشة ليلًا .. أطلَّ القمر في السماء على

استحياءٍ ككل ليلة .. كان ضياؤه هو الصديق الأوحد لعزيز بوحدتِه.. لكنه اليوم ظهرَ له شخصٌ آخر يُشاركُه وحدتَه .. إنه فاروق المرجوشي .

فتحَ المرجوشي عينيه ببطءٍ.. مرّت لحظاتٌ وهو ينظر إلى السقف ساكنًا .. ضوء القمر يتسلَّلُ من بين عيدان الخوص الممزوجة بعُروق الأخشاب ليُداعِبَ وجهَه اليابس.. نهضَ فجأةً وكأنه ضُرِبَ للتوِّ فوق رأسه.. أمسكها بشدةٍ من فَرْطِ الصُّداع والألم المسيطرين على مُؤخرة رأسه .. توجَّع المرجوشي بشدة .. آهاته المتتاليةُ نبَّهت عزيز، فدخَلَ مُسرعًا من خارج الكوخ، وأضاء المصباح المُعلَّق بالسقف بضوئه الأصفر..

- حمد الله على السلامة.

قالها مبتسمًا.

لم يردّ عليه من فَرْطِ ألَمِه.

- إيه حاسس بإيه؟

- صداع.. صداع فظيع.

- صداع؟ طب ثواني.

أخرج قرصًا من دوائه القوي من دولابه وأعطاه إيّاه مع كوبٍ من المياه.

- ده هيخليك تمام ..

مرّت عشر دقائق إلى أن هدأ فاروق تمامًا .. نَظَرَ حوله .. استكشف المكان جيدًا.. كانت نظراتُه كالطفل المُستكشف لكلِّ شيءٍ لأول مرةٍ بحياته.. شَعُرَ بفراغٍ كبير يملأ رأسه .. بحث في ذاكرتِه .. وكأنها صحراء قاحلة تصفر بأرجائها الرياح .. ضغط أكثر على عقلِه لعله يتذكّر أيّ شيءٍ.. اعتصرَ زناد ذاكرتِه.. لم يستطع .. لم يشعر بأيّ شيءٍ حينها سوى الضياع.. التيه.. أصبح كحبة الرمال التي ضلّت طريقها بالخطأ وسط بحر من الرمال المتحركة.. تساؤلات كثيرة تتلاعب برأسه، مَنْ هذا الرجل المبتسم؟ ما الذي أتى به إلى ذلك المكان؟ وما هذا الكوخ؟ ومَن هو؟ من هو؟ مَن هو؟

كاد يَقتلُه هذا السؤال: مَنْ يكون هو؟ إنه لا يتذكّر شيئًا عن نفسه.. ولا عن حياتِه.

نَظَرَ لعزيز والحيرة تملأ عينيه متسائلًا:

- أنا فين؟ وإنت مين؟ و.. .

قاطعه عزيز بابتسامةٍ واسعة:

- لا لا لا.. أجل أسئلتك دي لحد ما نشرب اتنين شاي مع بعض.. ولا نديها شوربة

- شوربة؟

- دي وصايا الدكتور شلبي ..

لم يتلقَّ منه أيّ إجابةٍ .. أخرجَ عزيز بطانيةً أخرى وأعطى فاروق إيّاها .. وضعها

فاروق فوق رأسه وخرجا معًا ليجلسا أمام الكوخ.. استنشق فاروق نسيمَ المساء.. كان الهواء باردًا .. شعُرَ أنه يتنفَّس لأول مرة بحياتِه.. وكأنه وُلِدَ للتوِّ.. حوَّط نفسه بالغطاء جيدًا ليتَّقي بردَ المساء.. شرَدَ كثيرًا بتلك النار المنبعثة من الكومة المشتعلة أمامه من الأخشاب.. لم يكن من الصعب على عزيز أن يدرك أنه فقد الذاكرة من بعض أسئلته له .. حاولَ عزيز أن يُهوِّن عليه قليلًا:

- معلش برده تلاقيها كانت حادثة جامدة.. بص ناكل لقمة سوا بقه هاه.

نَهَضَ عزيز إلى داخل الكوخ، وأحضرَ له بعض الطعام.. أكلا معًا .. كانت الليلة الأولى لعزيز التي يشاركه فيها شخصٌ آخر في هذا المكان المُخيف.. كانت الليلة الأولى التي لم يسمع فيها أيًا من الأصوات التي اعتاد سماعها كل ليلة من هذا النفق المهجور.. الليلة الأولى لضيفه القادم إلى عالمه وكأنه طفلٌ حديث الولادة ..

راح المرجوشي في نوم عميق.. وانشغل عزيز بتدوين عمله على الكمبيوتر باقي ليلتِه مُتمنيًا من كل قلبه أن تستمرَ ضيافتُه لهذا الشخص المجهول.. تمنَّى أن يشاركه وحدته اللَّعينة .. وحدته التي تعتصرُه كل ليلةٍ منذ وفاة جدته.

***

امتلأت السماء بتغريد العصافير لتُنبئَ بمَشرِقِ يومٍ جديدٍ.. امتزجَ صوتُها بغناء الصيادين منذ الشعاع الأول للشمس كالمعتاد:

- عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس

عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس ..

عا الرمل الدايب كتبنا

شوق الحبايب دوبنا

وانشالله توصل مراكبنا

الـ فيها أهالينا وحبايبنا

والفرحة تكمل .. يا ريس



عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس

غَدَت مجموعةٌ من الدراجات البُخارية المُغطاة ذات العجلات الثلاث المُسماة (توكتوك)، هكذا يُطلقون عليها .. إنها وسيلة المواصلات الوحيدة الظاهرة في هذا المكان الرملي.. تَنقُلُ الراغبين والبضائع من وإلى مراكب الصيد..

خرج فاروق المرجوشي من الخيمة .. وَقَفَ على بابه ليستنشق نسيم الصباح.. طربت أذناه من ذلك الغناء الممزوج بألحان الطبيعة .. اقتربَ من تلك التبة العالية الكاشفة لما ورائها.. وقف عليها .. فاجأه عددهم الكبير.. دَقَّق النَّظر بوجوههم.. لم يكن من الصعب عليه معرفة أنهم صيادون.. مراكبهم الصغيرة وشِباكهم تُنبئ بذلك بسهولةٍ.. ابتسمَ حين رأى تلك الوجوه المختبئ الفقر بين تجاعيدها مُمتزجًا بالرضا .. راضون بما قَسَمَ الله لهم..

برقت عيناه حين رأى ملابسهم.. ما هذا الذي يراهُ؟ إنهم موحَّدو الزيّ.. أعداد كبيرة من الصيادين بنفس الزيّ، لا اختلاف بين أحدِهم والآخر.. قميص طويل كالجلباب أقصر من الركبة قليلًا رمادي أدكن اللَّون على بنطال من نفس اللَّون .. لم يصدق ما يراهُ .. حتى مَن يرتادونَ تلك التكاتك الصغيرة يتشحون بنفس الزيّ .. هُيِّئَ له لحظة أنها جُلودهم، وأنه يراهم عرايا، ولكن سرعان ما تلاشت تلك الفكرة بعدما دقَّق النَّظرَ لكلٍّ منهم على حدة.. تفاجأ كثيرًا حين لاحظ أنه نفسه يرتدي ما يرتدون.. لم يلتفت إلى ذلك الليلة الماضية.. إنه نفس الزيّ.. نَفسُ اللَّونِ.. تلمَّس قميصَه مُندهشًا.. شعر أنه يتلمَّس جسدَ سمكةٍ.. إن له ملمسَ الأسماك.. لامعة كقشور أسماك السردين البحري خرجتْ للتَّوِ من المياه، وانعكس عليها ضوءُ الشمس.. ذُهِلَ كثيرًا من هذا الزيّ المُعمَّم.

استمرَّ الصيادون في غِنائهم وعملِهم المُعتاد. ظهر عزيز شريف حاملًا بعض الطعام والخضراوات في سَبَتٍ صغيرٍ .. ألقى عليه التحية مُبتسمًا:

- الله .. صباح الإشراق.. شكلك النهاردة أحسن كتير.

- الحمد لله.

- طب يلا تعالى نفطر سوا.. الطعميه شخنة مولعة .. يلا.

وَضَعَ الطعام فوق طاولة خارج الكوخ.. بدأ عزيز بالأكل طالبًا من فاروق أن يشاركه مُتودِّدًا إليه:

- اضرب طعميه .. اللي داق الطعمية.. أكل بالطاقية.. لازم تاكل عشان تبقى كويس .. إسمع الكلام.



كان عزيز يرتدي نفس الزيّ المُعمم ذي القُشور.. تساءل المرجوشي مُندهشًا:

- هو إحنا فين هنا؟

- فين يعني إيه؟

- فين؟ يعني فين.. في أنهي بلد؟

- آه.. في بربونيا.

قالها بتلقائيةٍ وهو يأكل:

سأله المرجوشي حائرًا:

- إيه.. بربونيا؟

- بربونيا.. بربونيااا.. إيه متعرفش بربونيا.. بربونيا.. مملكة السمك.

كانت علامات الحيرة والاندهاش تملأ وجه المرجوشي، ضحكَ على إثرها عزيز:

- معلش.. الظاهر الذاكرة كلها اتمسحت.. كل تأخيرة وفيها خيرة .. إستريح إنت بس وربنا يقدم اللي فيه الخير.

كانت علامات العجب لا تُفارِقُ وجه فاروق.. صَحِبَه عزيز في جولةٍ ليُعرِّفَه إلى تلك المدينة العجيبة لعل ذاكرته تعود كما كانت .. كان عزيز بِمُنتهي الفَرَحِ بذلك الصديق الجديد الذي ظهر له فجأة .. مرّا وسط الصيادين .. استمعا إلى غنائهم عن قُربٍ .. نظرا إلى وجوههم الطيبة..

- بروبنيا دي يا سيدي .. أحلى مكان في الدنيا.. البحر.. والنهر.. طبيعة خلابة.. أهلها زي مانت شايف طيبين.. مسالمين.. راضيين بالقليل.. كل واحد في حاله..

ابتسم عزيز

- أنا عارف إنك عاوز تسأل عن اللبس .. ده يا سيدي الزي الرسمي اللي فرضاه الحكومة على الكل هنا.. اسمه زي السردين.. الحكومة بتصرفلنا منه أربعة في السنة .. اتنين للصيف.. واتنين في الشتاء..

لم يستطع المرجوشي كَتمَ ضَحكتِه، فابتسمَ له عزيز أثناء تجوالِهما:

- هو اسمه كده.. زي السردين.. بكره ذاكرتك ترجع وتبقى زي الفل.

ألقى عم أحمد الصياد العجوز التحية على عزيز واحتضنه:

- صباح الخير يا حبيبنا.

- أهلًا يا عم أحمد .. ده ضيفي يا عم أحمد.

قالها مُشيرًا إلى فاروق.

- يا سلام .. ضيوف الباشمهندس على دماغنا من فوق.. اسم الكريم إيه؟



بُهت فاروق، ولم يجد ما يردُّ به عليه، فسارغ عزيز بالإجابة:

- فريد .. فريد شريف ابن عمي.

- يا مرحب يا مرحب ..

رحّب به على طريقته الخاصة بغناء موالٍ له:

- يا فريد يا غالي.. يا فريد ياللي بنحبك.. يا اللي إنت ابن عم حبيبنا.. ياللي جيت جارنا وأنستنا .. نورتنا يا فريد يا غالي .. من يوم ماجيت .. من يوم ما جيت .. من يوم ما جيت. وإحنااااااااااااا بنحبك ..

ابتسمَ المرجوشي من قلبه لأول مرة منذ مجيئه.. كان يشعر بالراحة في ذلك المكان .. وكأنه وسط أهله .. حيّاه عزيز وانصرفَ مُصاحبًا المرجوشي في جولةٍ ببروبونيا، بينما استمرَّ الصيادون في غنائهم:

- عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس

استمرَّ عزيز بحديثِه مع فاروق:

- أغلب الناس هنا شغالين في صيد السمك زي مانت شايف.. يعني تقدر تقول كده الدولة كلها اقتصادها قايم على المهنة دي.

سأله فاروق مُندهشًا:

- على السمك؟

- متستغربش.. السمك بيعمل أحلى فلوس.. إحنا نعتبر من أغنى الدول في العالم.

كانا قد وصلا إلى السوق المواجهة لمنطقة الصيادين.. تلك السوق المليئة بالسيدات السّمينات للغاية.. الجالسات على جانب من السوق بعضهنّ بجوار بعضٍ، مُفترشاتٍ بضائعهنّ من الأسماك المختلفة الطازجة أمامهن .

تعجّب المرجوشي كثيرًا .. كانت ملابسهنّ من نفس الشكل واللون .. زي السردين، ولكن على شكل جلباب فضفاض يُغطي كل جسدهنّ السّمين.

استكمل عزيز حديثَه لفاروق:

- الستات هنا بقه هي اللي بتبيع في السوق اللي أجوازهم بيصطادوه.

نادت كل واحدةٍ منهنّ على بضاعتها بحماسةٍ شديدةٍ:

- جمبري .. جمبري.. جمبري.



- يلا البوري الطازة.. البوري الطازة .. البوري.

- بلطي .. بلطي.. بلطي.. بلطي.

- سردين .. سردين.. سردين.. سردين.

تابع عزيز كلامه مُبتسمًا

- وزي مانت شايف ده سوق السمك .. وبربونيا بقه يا سيدى فيها 20 سوق سمك كلهم نفس الشكل ده .. كل منطقة صيد وراها السوق بتاعها.. الرجالة تصطاد وتورد لستاتهم تبيع في السوق.. طازة بطازة.. الكل هنا ماشي بمبدأ اللي يدي ابنه سمكة يطعم يومه واللي يعلمه الصيد عمره ما يقلق في نومه.

كانت الأسماك بمختلف أنواعها معروضةً بشكلٍ مُغرٍ على أسبتةٍ مَليئةٍ بالثلج.. رائحتُها نفَّاذة تُثير لُعابَك حين تشتمُّها.. سوق واسعة منظمة.. مقفولة من أحد الجوانب بحائط كبير من الخشب، ارتصت أمامه البائعات بعضهنَّ بجوار بعضٍ.. كان يفصلهما عن الطريق بالأعلى.. مراكب الصيادين على مَدّ البصر يُمارِسُ عليها أزواجُهنَّ أعمالهم اليومية.. تغدو بعضُ التكاتك من السُّوقِ وإليها محملةً ببعض الأسماك الطازجة التي صِيدتْ للتَّوّ.

زاد تعجُّب المرجوشي حين رأى هؤلاء الأشخاص المُترجِّلين بآخر السُّوق.. إنهم يرتدون نفس الزِّيِّ، ولكن على رؤوسهم قُبَّعاتٍ مُختلفةَ الألوان تُميِّزُهم عن الآخرين.. وَقَفَ مُعظمُهم عند تجمُّعٍ من التكاتك، يبدو أنه موقفٌ لها تأخُذ منه زبائنها..

لاحظ عزيز الحيرة في عيني المرجوشي الناظر تجاههم، فقال له مُبتسمًا مُشيرًا إليهم:

- دول بقى موظفين الدولة.. الدولة معيناهم تتابع عن طريقهم حركة البيع والشراء .. علشان تقدر تحدد الضرايب كويس.. يعني تقدر تسميها مراقبة لأسعار الأسواق.. وكمان عشان حركة البورصة.

- بورصة؟

- أه طبعًا.. أمال إنت فاكر إيه.. كل نوع من السمك هنا ليه كبار الشركات اللي شغالة فيه.. متبصش لدول.. دول صيادين غلابة.. شغالين على باب الله.. إنما فيه سفن صيد كبيرة شغالة في الميناء .. شغالبين في ملايين يا ابه.

- الموظفين دول بقه تعرفهم من البرانيط.. كل برنيطة ليها لون على حسب وظيفته .. يعني مثلًا .. أبو برنيطة حمرا ده يبقى مندوب الضرايب.. وأبو برنيطة خضرا ده .. يبقى مندوب البورصة.. أما بقه اللي لابسين برانيط سودا دول .. مندوبين من الشركات الكبيرة بيتابعوا السعر في الأسواق.

سيطر الذهول تمامًا على المرجوشي من هذا البلد الغريب .. وصلا إلى آخر السوق عند موقف التكاتك، ابتسمَ له عزيز:

- كفاية رغي بقه يا عم .. إنت مش جعان ولا إيه .. فيه مطعم قريب من هنا أكله حلو



جدًا .. أنا عازمك.

ركبا أحد تلك التكاتك .. تحرّك سائقه بعد أن أبلغه عزيز عن وجهتهما:

- مطعم سنارة.

- تؤمر يا باشمهندس عزيز

انطلق بهما وسط تلك المدينة العجيبة.. بشوارعها الواسعة .. البحر على اليسار دائمًا، وتراصّت أكواخهم الخشبية مع اختلاف أحجامها على اليمين خلف بعضها البعض على مدى البصر .. كانت أشكالها البيضوية المميزة الموحدة الشكل تُثير انتباه المرجوشي .. تحرّك بهما ذلك التوكتوك على عجلاته الثلاث مُنطلقًا فوق هذه الأرض الرّملية الممهدة.. كانت الأرض مُستويةً وكأن عليها أحسن أنواع الأسفلت.. لا تعلم كيف مهدت رمالها بهذه الطريقة المُبهرة .. لم يفصل تلك الأكواخ عن بعضها البعض إلا أعمدة الإضاءة المُتساوية المسافات بين بعضها البعض.. كانت هناك أكواخ كبيرة .. لاحظ المرجوشي أنها مطاعم مختلفة للأسماك .. قرأ ذلك على اللافتات المُعلّقة عليها ..

- مطاعم سنجاري.

- مطعم المعلم بوري.

- مطعم سمكة وشركاوه.

وغيرها من المطاعم الكثيرة التي تشتمّ رائحة الأسماك المشوية تنبعث منها يَسيلُ لها اللُّعابُ،

مَرّا على الميناء بسفنه الضخمة .. وبعده كان هناك سوق أخرى للأسماك تُشبه الأخرى .. ابتسمَ له عزيز مُشيرًا إليه:

- ده شارع البحر .. بس على يمينك كده جوه قوي بقه فيه النهر بتاعنا .. الأكواخ دي من هنا لحد النهر .. ده غير الأكواخ اللي على الجبل.

وقف التوكتوك مع مجموعةٍ أخرى وسط الطريق.. كان هناك ستة تكاتك من الحجم الكبير بعجلاتها الضخمة تقف بعرض الشارع مع تلك الحواجز التي يستخدمها رجالُ المُرور تاركةً مكانًا ضيقًا يمرُّ من خلاله توكتوك تلو الآخر بعد تفتيشه .. لفت انتباهَه ألوانُها المُختلفة .. إن لها نفس ألوان عربات الشرطة المُعتادة بأبواقها الحمراء أعلاها.. وَقَفَ أمامها بعض الجنود وأمامهم أحد الضباط .. تعجَّب المرجوشي من ملابس ذلك الضابط أن لها لونًا آخر يختلف عن الآخرين سواء الجنود أو مَنْ تشبَّعت عيناه برؤيتهم منذ أن دبَّت قدماه على أرض بريبونيا.. كان لها الون الأزرق .. أزرق داكن.. مختلفًا عن جنوده المرتدين زيّ السردين والمميزين على أذرعهم اليُمنى شارات حمراء اللّون..

طمأنه عزيز بابتسامته المُعتادة:

- دي نقطة مرور بتبقى موجودة كل كام كيلو .. احتياطات أمنية.. عادي يعني .. طالما



إنت في السليم .. متقلقش .. خليك في حالك يزيد راس مالك.

كان بجوارهما توكتوك آخر به شابٌ ينظر بتحفُّزٍ تجاه تلك اللجنة.. يرتدي نفس اللون الأزرق المماثل لذلك الضابط.. تعجَّب المرجوشي من نظراتِه كثيرًا..

تعجَّب أكثر حين رآه ذلك الضابط .. وانهالَ عليه بالضربِ هو وجنودُه، وكأنه مُجرمٌ خطير،

استمعَ إلى تعليقات الموجودين حوله مُندهشًا:

- مجنون ده ولا إيه؟

- مش ده الواد بن نفيسة .. يخيبه.

- الواد ده مغلبها من صغره.

- شوف الواد البجح .. لابس قرش زي كبارات البلد ..

- هي العين تعلى عن الحاجب؟ عجايب..

انهالوا عليه بالضربِ، ثم اقتادوه إلى أحد التكاتك، وقيَّدوه داخلَه وهو يصرخ:

- محدش له دعوه بيا.. أنا ألبس اللي أنا عاوزه.. أنا حر.. أنا حر.. أنا حر.

أشار الضابط إلى الجميع:

- كل واحد يشوف مصلحته.

مرَّا وسط تعجُّب المرجوشي .. ترى ذلك واضحًا في عينيه..

همَس له عزيز وكأن شيئًا لم يكن:

- هأكلك أكلة سمك إنما إيه .. لوووووز.

كانت الحكومة تفرض زيَّ السردين على أفراد الشعب كافةً ما عدا الطبقة الحاكمة .. كان زيُّهم مسمى بزيِّ القرش، لونه أزرق، ويُميز بعضهم عن بعضٍ بشارات تُوضع على الذراع اليمنى كتلك التي يضعها الضباطُ بمختلف درجاتهم في الجيش.

***

كان يومًا ممتعًا لعزيز.. خرَج من عُزلته مع صديقِه الجديد مَجهول الهوية.. شاركَه يومَه بالكامل .. بينما كادت الحيرةُ تقتُل المرجوشي.. لم يكن سهلًا على أيِّ أحدٍ أن يعيش بدون ذاكرةٍ.. بدون ماضٍ.. مُبهمَ الحِسّ..

جلسا معًا أمام الكوخ ليلًا .. حاولَ عزيز سؤاله مرةً أخرى لعلَّه تذكَّر أيَّ شيءٍ:

- مش فاكر حتى أنت منين؟ اسمك؟ شغلك؟ أهلك؟ ده أنت حتى مكانش معاك بطاقة في جيبك.

حاولَ عزيز إيجاد حَلٍّ لصديقه المرجوشي .. خَطَرَ على باله أمرٌ ما، نَهَض لداخل الكوخ



على أثره:

- أقولك طب استنى.

نَظَرَ فاروق إلى كومة الخَشبِ المُلتهبةِ بنيرانها.. شَرَدَ في لا شيء.. جحظت عيناه حين استمعَ إلى صوتٍ يأتي من ناحية ذلك النَفق المُظلم.. أرهفَ سمعه .. إنه صوتُ فتاةٍ تصرخ عاليًا.. تصرخُ مرعوبةً بأعلى صوتِها.. انتفضَ واقفًا.. يبدو أن هناكَ مَن تحتاج إلى مساعدة.. اقتربَ من مصدر ذلك الصوت الصارخ بخطوات مرتبكة.. خرجَ عزيز حينها من الكوخ، ونادى عليه مُبتسمًا

- إيه؟ رايح على فين؟

- إنت مش سامع؟

أشار إليه حينها تجاه مصدر الصُراخ:

أخَذَهُ عزيز من يدِه وأجلسه بجواره مرةً أخرى أمام الكوخ وكأن شيئًا لم يكن:

- تعالى بس .. أقعد.. أقعد أنا هفهمك.

تعالت صرخاتُها وكأنها تطلب منهما المساعدة.

- ده نفق عملته السكة الحديد قبل ما تتلغي قبل الحرب.. الحرب العالمية التانية.. والحقيقة مخبيش عليك يا صديقي.. النفق ده مسكون..

- مسكون إزاي يعني؟

- مسكون.. مسكون بالعفاريت..

جحظت عينا المرجوشي ..

طمأنَه عزيز ضاحكًا:

- إيه يا عم .. برقت كده ليه.. متخافش كده .. خلي قلبك جامد.. اللي تخاف من العرسة متربيش كتاكيت.

- عرسة إيه وكتاكيت إيه؟

- لا أنا قصدي اللي يخاف من العفريت يطلعله.. يعني خليك شديد.

استمرَ صُراخُ الفتاةِ يتردَد وكأن له صدَى، نظر تجاهَها المرجوشي خائفًا.

- دي بنت بيقولوا إنها ماتت محروقة .. بيقولوا إنها كانت في رحلة شمّ مع أهلها، ولما جه عليهم الليل مسكت النار في فستانها ودخلت تجري جوه النفق.. محدش لحقها وماتت.

تأثَر فاروق كثيرًا بتلك القصة ..

- وفيه قصة تانية بتقول إن العمال اللي كانوا شغالين في النفق ده .. جابوا واحدة

تفرفشهم بالليل قامت لمبة الجاز مسكت فيها وولعت برضه .. وقصة تالتة ورابعة وخامسة.. الناس مورهاش غير الكلام .. يموتوا في خلق أشباح يخافوا منها مع إنهم هم اللي وجدوها في عقولهم.

نظر تجاه النفق حزينًا مُستفسرًا:

- بس ده فيه صوت فعلًا أهو؟

- هو أنا أنكرت إن فيه عفاريت وجن .. لا هم موجودين فعلًا.. أنا أقصد منشغلش بالنا بيهم.. هم في حالهم واحنا في حالنا .. بقولك أيه بقه.. سيبك من الجو الحمضان ده.. دلوقتي تسكت.. خلينا إحنا في مشكلتك.. خد.

أعطاه شريط كاسيت كان بيدِه لونه أسود.

- إيه ده؟

- ده يا سيدي شريط عليه شوية تدريبات ذهنية .. كنت بستخدمه مع جدتي .. أيام ما كان الزهايمر شادد حيله عليها.

- وهي عاملة إيه دلوقتي؟

- الله يرحمها.

نَظَرَ إلى ذلك الشريط الأسود حائرًا.. لمعت عيناه .. شَعُرَ ببارقة أملٍ تُولَدُ داخلِه.. شُعاعٌ من الضوء الخافِت يخترق ظلامَه الداخليَ.. سيسعى بكل قُوَّته لاستعادة نفسه.. لعله يسترجع ذاكرته.. لعله يسترجع حياته السابقة.. لعل هذه المدينة العجيبة وراحته تلك التي استشعرَها داخلَها تُحفِّز تلك الذكريات الغارقة أن تطفو على السطح.. لعلها .. بربونيا.



ذاكِرة في مَهَبِّ الرِّيح

أطلَّ صباحٌ جديدٌ يحنو بضيائه على الجميع.. غرَّدت عصافيرُه ذلك اللَّحن المُعتادَ كُلَّ صباح .. امتزجَ نسيمُه بذلك العَبقِ الباعِثِ على الأمل.. أقبل الصيادون على أرزاقِهم بغنائهم، ووجوهُهم المُتشقِّقةُ مُبتسمةٌ للحياة:

- عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس

وَقَفَ فاروق بمفردِه داخل الكوخ مُمسكًا بشريط الكاسيت.. نَظَرَ إليه والأمل يَطلُّ من عينيه .. تعلَّق بقوة بهذا الضوء الخافِت بداخله .. وضعه داخل كاسيت صغير في جانب الكوخ.

استمعَ المرجوشي بتركيزٍ شديدٍ إلى مُحتوى الشريط، إنه صوت امرأةٍ تتحدَّث وكأنَّها ببرنامجٍ إذاعيٍ بالراديو:

- عزيزي فاقد الذَّاكرة.. إذا كنت تستمعُ إلى هذا الشريط في المساء.. أغلقهُ فورًا.. أمَّا إذا كنتَ تستمعُ له في الصباح .. إذن .. صباح الخير.

ردَّ عليها المرجوشي مُرحِّبًا والابتسامة تملأُ وجهَه:

- صباح النور.

- لاستعادة الذاكرة .. اتَّبِع التعليماتِ الاتيةَ.

استعدَّ فاروق بتركيزٍ شديدٍ:

- قف.. ارفع ذراعيك جانبًا.. انظر لأعلى.. خُذ نَفسًا عميقًا..

نفَّذ المرجوشي تلك التعليمات بدقةٍ.. كان واثقًا أن ثمة نتيجة ما سيحصل عليها من وراء ذلك.. كان حريصًا على النجاح ..

- والآن اجرِ في مكانك .. أسرع .. أسرع.. أسرع.

جرى المرجوشي بمكانه وكأنه يُهروِلُ وراء ذاكرتِه الهاربة.

- أدِّ تمرين الضَّغط عشر عدَّات، تمرين البطن خمس عدات، أسرع.. أسرع.. أسرع، مرة أخرى.. ضغط .. بطن.. ضغط .. بطن.. ضغط.. بطن.

لَهثَ فاروق بشدةٍ من فَرطِ التَّعب.. تعالت أنفاسُه وتصبَّب العَرَقُ بغزارةٍ على جبينِه..



- والآن .. اخبط رأسك في الحائط..

نَظَرَ مُتعجبًا تجاه الكاسيت!

- هيًا .. اخبط رأسك في الحائط.. لا تتردَد.. خبطات سريعة متلاحقة.. أسرع.. أسرع.. أسرع.

كان يخبط رأسه كالمجنون.. لو رآه أحدٌ على هذه الحال لأوصى بإيداعه عنبر الخطرين بمستشفى الأمراض العقلية على الفور ..

- والآن .. اختبر شخصيتك وقوة ذهنك بالإجابة عن الأسئلة الآتية.

جحظت عيناه لاهثًا وأنفاسه تتعالى أكثرَ وأكثرَ مُنتظرًا تلك الأسئلة بشغفٍ كبيرٍ:

- عزيزي فاقد الذاكرة .. لا تَخَفْ.. فالدماغ كالمِنطاد يعمل أفضل إذا كان مفتوحًا.

أمسكَ رأسه حينها مُتحسّسًا إياه مُتسائلًا:

- مفتوح؟

أحسَّ بالدماء تتدفَّق منها بقوةٍ.. تحوّلت الدنيا من حوله للون الأحمر.. ملأ عينيه .. وكأن لون دمائه المتدفقة يطغى على كل شيءٍ .. وُلِدَتْ قوةٌ جديدةٌ داخل رأسِه.. شَعُرَ بها بشدةٍ.. قوة مجهولة.. أمسك رأسه أكثر.. فَرَكَ عينيه بقوةٍ.. تزايد اللّون الأحمر.. طَغَى تمامًا على كل ما حوله.. اختفى الكوخ تمامًا .. وكأنه ألقى في بحر من الدماء.. لم يُصدِّق ما يراهُ.

وجَدَ نفسَه وسط ساحةٍ دائريةٍ .. إضاءتُها خافتةٌ يطغى عليها الضوء الأحمر.. كتلك الغُرف المُخصَّصة لتحميض الصور داخل الإستديوهات.. هناك شيء ما يُومِضُ بالضوء الأبيض .. دَقَّق النظر.. إنها تُشبِهُ تلك الإشارات الكهربائية المنبعثة بين قطبين متناقضين.. يراها تتحرَّك أمامه تُضوي بالأبيض .. يتعالى صوتُها عاليًا .. تبعثُ القُشعريرة داخله..

فَتَحَ المرجوشي فمَه مذهولًا.. ما هذا المكان؟ ما الذي فعله به ذلك الشريط العجيب؟

دَقَّقَ النظر قليلًا.. لاحظ على الجانب الأيسر كتلةً من الفُصوص المُتلاصقة.. اقتربَ منها.. يراها الآن جيدًا.. تلمَّسها.. كان هناك صوت يُشبِهُ ضربات القلب يأتي عن بُعدٍ.. إن تلك الكتلة تُشبِهُ فُصوص المخ.. لم يُصدِّق نفسَه.. إنه داخل رأسه.. وما يَراهُ أمامه الآن هو مُخُه .. عجبًا لهذا الشريط .. لقد قَذَفَ به إلى داخل رأسه .. لم يكن يتصوَّر المرجوشي يومًا ما أن يدخل إلى رأسه ويتجوَّلَ بها.. يتجول في شوارع ذِكرياتِه الضائعة.. دَقَّقَ النظر في خلايا مُخِّه وفُصوصه.. استمعَ حينها لصوتِ فتاةِ الشريط يعود مرةً أخرى إلى مَسامعِه:

- السؤال الأول.. رتِّب الحيوانات الآتية حسب التَّرتيب الذي تُفضِّلُه: بقرة.. خروف.. نمر.. حصان.. خنزير.

لم يُصدّق عينيه حين شاهَدَ صورًا مُتحرِّكةً لهذه الحيوانات على بعض فصوص مُخه.. تظهر وتختفي وكأنها تُصارِعُ من أجل البقاء .. شعُرَ حينها المرجوشي أنه في طريقه الصحيح لاستعادة ذاكرتِه بقوةٍ.. عليه أن يستجمعَ كُلّ قُواهُ حتى يقوى على الخُروج من بئر التيه التي أُلقيَ فيها رغمًا عن إرادته.. تجوّل المرجوشي داخل رأسِه مذهولًا مُتلمّسًا فُصوصَ مُخه.. استمرَّ صوتُ الفتاةِ مُصرًا على مُلاحقتِه:

- اكتب كلمةً واحدةً تصفُ فيها.. كلبًا.. قطةً.. فأرًا.. بحرًا.

جحظت عيناه حين رأى مشاهد مُصوَّرةً تُعرض على بعض فُصوص مُخه.. أدركَ أنها مَشاهِدُ قديمةٌ مرّ بها في حياتِه، وخُزِّنت داخلَ ذاكرتِه.. دقّقَ النّظر مُحاوِلًا التّذكُّر.

رأى على أحد الفُصوص طفلًا صغيرًا يجري وراء فأرٍ في غرفةٍ ما .. مُمسكًا بعصًا كبيرة يُحاوِلُ ضربَه .. هناك رجلٌ يضحكُ عاليًا لكنه لا يَراهُ.. وعلى فَصٍّ آخر.. نفس الطفل يُربت على كلبٍ حجمُه كبير أسود اللون.. والكلب يتمسّح فيه وكأنه يبتسمُ له. وعلى فَصٍّ ثالث.. يجري نفسُ الطفل مع امرأةٍ في الثلاثينيات من عُمرها.. يجريان على شاطئ البحر والبهجة تملؤهما..

أمسكَ فاروق رأسَه مُحاوِلًا التّذكُّر.. أدركَ أن ذلك الطفل لا بد أن يكون هو .. لكنه لا يتذكّرُ..

عاودَ صوت الفتاةِ الحديثَ مرةً أخرى:

- فكِّرْ في شخصٍ مُهمٍّ لك.

كرّرتها كثيرًا وكأنها تؤكّدُ أهمية تلك الخُطوة له.

- فكِّرْ في شخصٍ مُهمٍّ لك.

- فكِّرْ في شخصٍ مُهمٍّ لك.

- فكِّرْ في شخصٍ مُهمٍّ لك.

حينها رأى فَصًّا كبيرًا .. تظهر عليه إحدى الفتيات وهي تضحكُ بصوتٍ عالٍ.. ضحكاتُها ساحرة.. اقتربَ من ذلك الفَصِّ.. إن صورتها مُشوّشةٌ.. تلمّسَ الفَصَّ أكثر.. حاوَلَ التّذكُّرَ .. إحساس عميق يعتصر قلبَه الآن.. شُعورٌ بالحُزن والأسى يعتصِرُه.. لا يدري لماذا.. حاوَلَ أكثر.. أمسَكَ رأسَه مُتوجِّعًا.

أصرّتْ فتاة الشريط على الاستمرار:

- حاوِلْ.. حاوِلْ.. حاوِلْ.. حاوِلْ.

وكأنها تعرف أنها اللحظة الحاسمة لعودة الذّاكرة .. الألم يزدادُ في رأسِه.. وكأن هناك مَن يدقُّ رأسَه بشاكوش ضخم.. أمسَكَ رأسَه .. انطفأت تلك الفُصوص فجأةً وكأنها مُحيت بأكملها.. ازدادت حِدّةُ الإشارات الكهربائية.. تعالى وَميضُها.. أصابَتْهُ وكأنها

تصعقه .. تحوّل حينها إلى هيكلٍ عظميٍ مُضيء.. صَرَخَ شديدًا من ألمِ رأسِه .. أظلمت الدنيا في عينيه .. وكأنها تصرُ على إبقائه في الظلام بقية حياتِه مَفقودًا دون أن يدري مَن هو؟ ومِنْ أين أتى؟

فتح عينيه بصعوبةٍ.. نَظَرَ حوله.. إنه ما زال في الكوخ.. مُلقى على الأرض.. الألمُ يزدادُ في رأسِه، وصوتُ الفتاةِ مُستمرُ في دفعِه إلى الأمام.

- حاوِلْ .. حاوِلْ .. لا تيأس.

نَهَضَ وأغلقَ الكاسيت.. جلسَ على الأرض مُنهكَ القُوى.. والعَرَقُ يتصبَبُ منه .. ماسكًا رأسَه في حُزنٍ شديدٍ.

***

أصَرَّ عزيز شريف على إيجاد حَلٍّ لمشكلة صديقِه المرجوشي.. على الرغم أنه قد يُنهي صحبتَه له ويعود مرةً أخرى إلى وحدتِه المُوحِشَةِ.. لكنه أحبّه بشدةٍ في تلك الفترة القصيرة التي قضاها معه .. ورغب بالوقوفِ إلى جواره بمحنتِه.

اصطحبَهُ عزيز إلى الحلِّ الثاني .. الحل البديل عن الشريط.. اصطحبه إلى (كوخ المُعالِج).. ذلك الكوخ الواقع بمنتصف المدينة .. قريبًا من النهر.. أخبرَه بأنه أحرزَ تقدمًا شديدًا بحالة جدته رحمة الله عليها.. كان كوخًا كبيرًا من الخشب المُقوّى المُحاط بعيدان الخُوص.. دخلا والتحدي يملأ عيني المرجوشي ممتزجًا بالأمل من جديد.. مُصرًا على كسبِ هذه المعركة.. معركة الخروج من التيه.. معركة استرجاع الذاكرة.. العودة إلى حياتِه السابقة .. العودة إلى نفسه.. العودة إلى فاروق طلعت المرجوشي.

كان الكوخ بيضوي الشكل.. ساحتُه واسعة .. مليئة بالكراسي الخشبية على جوانبِه.. امتلأت الكراسي بالرجال والنساء.. جلسَ بعضُهم بجوار بعضٍ.. قعدوا كأولئك المرضى المنتظرين للكشف بإحدى العيادات .. راقبَ المرجوشي المكان بعينيه .. الإضاءة خافتة تبعثُ في النَفس الراحة.. إحدى الفتيات تجلس إلى طاولة مستديرة وسط الكوخ.. وبالطبع ترتدي زيّ السردين .. هذا الزيُّ الذي لا يُفارِقُهم أبدًا، وكأنه أصبح كجلدِهم لا يتخلون عنه .. كان فوقه بالطو أبيض اللّون.. سمينة كهيئة كل النساء في هذه المدينة..

جلس هو وعزيز في أحد الأركان .. هناك رجلٌ عجوزٌ يجلس بجوارهما.. تعجّب المرجوشي من نظراتِه إليه.. وكأنه يرغب في البَصق بوجهِه.. نظرات مليئة بالاشمئزاز.. أدار المرجوشي وجهَه وتلاشاهُ .. لكنَّ الرجل استمرَ في نظراتِه تلك.

هَمَسَ لعزيز بصوتٍ مُنخفضٍ مُتعجّبًا:

- الراجل ده بيبصلى كده ليه؟

- فين؟

- ده



أشارَ إليه المرجوشي بعينيه:

كَتَمَ عزيز ضحكته وهمسَ إلى فاروق:

- لا متقلقش.. ده عم سعيد.. عنده فوبيا من الشباب.. موته وسمه يشوف شاب.. بيخاف منهم وبيقرف قوي لما يشوفهم.

- فوبيا؟

- فوبيا.. فوبيا يعني خوف.. قلق.. رعب.. ده معناها.

نَظَرَ إليه المرجوشي مُتعجبًا.. لاحظَ بعدها ذلك الشابَ الجالسَ في الجانبِ الاخر من الكوخ .. كان مُمسكًا بماكينة حلاقةٍ يحلق بها ذقنه مُتوترًا وبعصبيةٍ شديدةٍ. همسَ لعزيز مُشيرًا إليه:

- وده مكان يحلق فيه ذقنه؟

ابتسمَ عزيز:

- لا هو كده على طول.. ده مليجي.. عنده فوبيا الدقن.

وَقَفَ حينها رجلٌ في الخمسينيات من عُمرِه فجأةً صارخًا في الشابِ الجالس بجوارِه والمُمسكِ بمجلة كان مُنهمكًا بقراءتِها:

- بس بقه يا أخي .. إنت إيه معندكش أب.. عصبتني حرام عليك.. عمال تقلب ورقة ورا ورقة ورا ورقة .. ايييييييييييييييييه.. مفيش حد غيرك هنا؟

نَظَرَ المرجوشي إلى عزيز مُنتظرًا تشخيصه:

ابتسمَ عزيز هامسًا للمرجوشي:

- عم برديسى.. فوبيا الورق.

كَتَمَ المرجوشي ضحكتَه .. كانت حالته ينطبق عليها المَثلُ الشعبيُ: (اللى يشوف بلوة غيره تهون عليه بلوته).

أدركَ أن ما يُعانيه سينتهي يومًا ما بمجرد عودةِ ذاكرتِه له .. لكن هؤلاء لا نهاية لحالاتهم

نامَ حينها على كتفِه الرجل الجالس بجوارِه .. كاد يغلبُه النَومُ .. لكنَ الرجلَ نَهَضَ صارخًا مَفزوعًا وكأنَ حيَةً قد لدغَتْهُ:

- - لالالالالالا.. مش عاوز أنام! مش عاااااااااااااااااااااوز أنام!

هَمَسَ له عزيز مُبتسمًا:

- شحاتة أفندي.. فوبيا النوم.

كتم المرجوشي ضحكتَه وقال بتلقائية:



- لا، ربنا يزيد ويبارك.

نَهَض حينها ذلك الرجلُ ذو الخمسين عامًا، وخَطَفَ المجلة من يَدِ الشابِّ الجالس بجواره ومَزَّقَها:

- وادي أم المجلة اللي قارفنا بيها.. أهو.. أهو.. أهو.

كاد الاثنان ينفجران في الضَّحك.. لم يكن المُعالج قد وَصل بعد.. كان الجميع بانتظارِه، دخلت سيدتانِ من الوزن الثقيل، وجلستا بجوارهما بعد أن سألتا عن المُعالج، استمعَ فاروق إلى حديثهما كاتمًا ضحكاتِه، كانت إحداهما تتحدَّث بتأثرٍ شديدٍ والأخرى جاحظة العينين:

- ياختي من حوالي سنة.. أكلت سردين.. كنت جايباه من السوق.. والله كان طازة.. نمت بعدها وصحيت.. وكأن أعوذ بالله حد كده قاعد على صدري.. كاتم عليه كدهوه.

لَطَمت الأخرى - من التأثُّر - صُدغها المُمتلئ، بينما استكملت الأخرى وكأنها ستبكي من التأثُّر:

- حاولت أرجع.. مقدرتش.. حسيت إني بتخنق.. بموت.. شربت.. شربت مايه كتير .. كتير قوي.. قمت خفيت.. وكأن مفيش حاجة .. بس من ساعتها وأنا موسوسة من الأكل .. كل ما حُط حاجة في بُقي ببقى عاوزه أرجعها ..

تباكت الأخرى على حالها متأثرةً ومُربتةً على كتفها:

- أتاريكي يا عيني خسيتي النص.

لم يستطع المرجوشي كَتمَ ضحكته أكثر من ذلك.. انفجر في الضحك .. حاولَ عزيز إسكاته، لكنه تمادى أكثر في الضحك.. نَظرَ له الجميع مُتذمِّرين .. ابتسم لهم عزيز وبتصنُّع مُشيرًا إلى المرجوشي:

- معلش يا جماعة .. فوبيا الحزن.

استمرَّ فاروق في ضحكته بهيستريا:

- أنا عاوز أمشي.

قالها طالبًا ذلك من عزيز.

فسأله عزيز:

- ليه؟

جاوبَه بتلقائيةٍ وانفجر الاثنان بعدها في الضَّحك:

- فوبيا القعدة.

***

جَلَس المرجوشي على السرير داخل الكوخ ليلًا والأمل يطلّ من عينيه حذرًا.. وَقَف أمامه عزيز بعد أن أعدَّ له كوبًا من الشاي المَمزوجِ باللّيمون .. كانت الحيرة تُسيطرُ على المرجوشي..

سألَ عزيز وهو يرتشف من كوب الشاي الفخّار

- إنت متأكد من الراجل المعالج ده يا عزيز؟

- ده عبقري .. متقلقش يا صديقي.. اضرب كوباية الشاي كلها .. هاه.. هتضيعلك البرد خالص.

كانت حاسّةُ الشمِّ انعدمت تمامًا لديه منذ الصباح الباكر.. مع قليلٍ من الرّشح..

رَشَفَ من الكوب وهو شاردٌ بتلك التوصيات التي أوصاهُ بها ذلك المعالج داخل مَكتبِه ناظرًا إلى ذلك الكيس الموضوع أمامه على طاولة الحاسوب الإلكتروني .. كيس مليء بطينٍ أسود اللون .. تردّدت كلماتُ المعالج في أذنيه:

- حط من الطين ده كل يوم الصبح على شعرك.. إدهنه كويس.. سيبه طول اليوم.. واياك تغسله مهما حصل.. ده هيغذى البشرة ويجدد طاقتك .. وذاكرتك كمان.

كان أملُه في النّجاةِ من هذا التّيه الإجباري يتزايدُ داخلَه يومًا بعد يوم.. باغتته عطسةٌ شديدةٌ.. أخرج منديلاً صغيرًا من القماش ماسحًا أنفه .. خَلَدَ بعدها إلى النوم هامسًا إلى عزيز:

- تصبح على خير.

- وانت من أهله.

أنهمكَ عزيز في تدوين عمله على جهازه طوال الليل كعادتِه .. مرّت ليلةٌ أخرى على المرجوشي حالمًا بالعودة.. مُقرّرًا تنفيذ وصايا المعالج في الصباح الباكر.. وما إن وصلَ للأرض أولُ شعاع للشمس .. كان المرجوشي واقفًا أمام الكوخ واضعًا ذلك الطين الأسود فوق رأسه .. زاد الرّشحُ بأنفِه المُتزايد في الاحمرار .. خرجَ وأصواتُ العصافير تُداعِبُ أذنيه، وغناء الصيادين يُشعِرُه بالراحة، بينما غابت عنه تلك الرائحة .. ذلك العَبقُ المُثير لراحة نفسه .. عَبَقُ الأسماك.. نَظَرَ إلى السماء مُبتسمًا وأملُه في العودة إلى نفسه أكثر من ذي قبل ..

تحرّكَ ناحية الصيادين المُستمرين بالغناء:

- عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس

غنّى معهم .. اقترب منهم.. ابتسمَ لهم .. شعُرَ برغبةٍ قويةٍ للاندماج معهم.. أن يصبح واحدًا منهم.. مَرَّ بجوارِهم أثناء عملِهم والابتسامةُ تملأُ وجهَه.. تعجُّب من تعبيرات وجوهِهم تجاهه .. كانت شبيهةً بتلك النظرات التي نظرها له عم سعيد الرجل العجوز بكوخ المعالج .. نظرات القرف والاشمئزاز.. سألهم مُبتسمًا مُخفيًا حَرَجَه:

- إيه يا خوانا.. فوبيا الشباب ولا إيه؟ اااااا صباح الخير.. صبااااااااااح الخير

ازدادت نظراتُهم المُشمئزة بعد أن توقّفوا عن العمل والغناء تمامًا.. سَدُّوا أُنوفَهم.. حتى أن أحدهم كان يأكل فتوقّف فجأةً وكاد يتقيأ .. رآهُ المرجوشي فسأله مُبتسمًا:

- إيه؟ فوبيا الأكل؟

أشار إليه وكأنه يُريدُ أن يخدمه بحسنِ نيّةٍ:

- بص فيه كوخ كبير وسط القرية.. وانت رايح على النهر.. تاخد توكتوك هينزلك قدامه.. الراجل اللي هناك تمام التمام.

لم يُمهلْه الرَّجلُ حتى يكمل جملته.. دَفَعه بيده وجرى بعيدًا عن المكان.. تبِعَه كُلُّ الصيادين جريًا تاركين أعمالهم .. تركوا المنطقةَ بأكملِها مهجورةً إلَّا مِن المرجوشي المذهول تمامًا.. تملَّكه الحُزنُ .. تساءل: لماذا يعاملونه هكذا؟ ترجّل تجاه السوق.. رَغِبَ في إضاعة الوقت .. مَلَّ الجلوسَ طَوال اليوم بالكوخ.. وما إن دخل السُّوق حتى انقلبَ رأسًا على عقِبٍ، صَرَخَتْ إحدى البائعات عاليًا بمجرد مُروره بجانبِها:

- ااااااف.. إيه الريحة المعفنة دي؟

أجابتها البائعةُ المُجاورةُ لها:

- تلاقيه البكابورت اللي ورا ضرب تاني.

- يا ساتر يا رب.. دي ريحة فظيعة.

حاول المرجوشي تصنُّع الابتسامة على وجهه .. كان يرى نظراتِ الاشمئزاز تملأ عيون كل مَن يراهُ.. لم تمرَ دقيقةٌ واحدةٌ إلا وأصبح السُّوق خاليةً تمامًا من زُوّاده ومن البائعات.. جروا جميعًا خارجها مُتعفّضين تاركين إيّاها تمامًا للمرجوشي.. وَقَفَ حينها وسط السوق.. احتبَسَت الدموعُ في عينيه.. إلى هذا المدى يكرهُهُ الناس.. هل أصبح جُرثومةً يهربون منها؟ هل أصبح كالوباء ينزوي الجميع بعيدًا عنه؟

لم يفهمْ أيَّ شيءٍ إلَّا بعد يومٍ كاملٍ من جُلوسه داخل الكوخ حزينًا مُنزويًا.. لم يفهم إلا بعد عودة عزيز من مأمورية بالعمل طوال اليوم.. لم يُدرِكْ إلَّا بعد انخراط عزيز بالضحك الهيستيري.. فسَّرَ له أن الرائحة المُنبعثة من ذلك الطين تُشبِهُ تلك الرائحة الناتجة عن موت أحد الحيوانات بعد عدة أيام.. كرائحة كلبٍ ميتٍ منذ أكثر من عشرة أيام. غَسَلَ رأسَه جيدًا .. تخلَّص مِن ذلك الكيس وهو يضحك بهيستريا.. ضَحِكَا طوال الليل.. ضحكا والحيرةُ تعتصر عَقلَ المَرجوشي .. مُتسائلًا: إلى متى سيظل بدون ماضٍ؟ إلى



متى سيظلّ بدون أهل؟ إلى متى سيظلّ بدون وطنٍ؟ إلى متى سيظل بدون ذاكرة؟ ذاكرة في مَهَبّ الرّيح.



فتاة مِن الماضي

استلقى المرجوشي نائمًا تُبهرُه النُجومُ المُتناثرة بالسماء .. تلك النجوم المُتلألئة .. تُغازِلُ جميعُها القمر دون ساتر.. غابت الغيوم هذه الليلة.. غابت على غير العادة .. لم يَقوَ فاروق على النَومِ هذه الليلة.. شَغَلَه حالُه الذي وَصَلَ إليه.. أرَّقه بشدة.. خرجَ من الكوخ تاركًا عزيز يغُطُ في نومِه ..

دمعت عيناهُ على حالِه.. ذاكرته خاوية تمامًا .. خربة.. ذلك ما يشعر به .. اعتصرَ الحُزنُ قلبَه .. مَن مِنّا يستطيع العيش بدون ذكريات؟ انتحبَ على ضياعه المجهول.. كم يتوقُ إلى معرفةِ نفسِه .. وطنه.. أهله.. عمله.. إنسان ضائع بلا هدف.. دندنَ بأغنية الصيادين مُبتسمًا بحزنٍ:

- عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس

عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس

ملأت الابتسامة وجهَه، لكن لم تُفارِق الدُموع عينيه، استمعَ إلى ذلك الصوت الآتي من النفق القريب.. صوت فتاةٍ تصرخ بأعلى صوتِها.. تلك الفتاةُ المَحروقة التي حكى له عزيز عنها.. اخترق صراخُها سُكونَه.. فُضولُه يُحرِّكُه تجاه ذلك النفق المُخيف.. تردَّدَ كثيرًا.. ترى ذلك في عينيه الحائرتين.. نَهَضَ المرجوشي لداخل الكوخ، وخَرجَ بعدها مُمسكًا شمعةً بيدِه .. قرَّر أن يُرضي فضولَه ويستكشف ذلك النَفق.. اقترب منه بخُطواتٍ مُتثاقلةٍ حذرةٍ.. تلمَس جُدرانه الخارجية .. بَحَثَ عن مدخله.. اقتربَ أكثر من شاطئ البحر.. كانت صرخاتُ الفتاةِ تتعالى كلما دنا أكثر.. دبَّ بقدميه وسط الأمواج المتلاحقة.. مدخل النفق مواجهٌ للمياه .. تَغمُزه الأمواج .. وَقَفَ أمام مدخل النُفق والرُعب يملؤه.. تسلَّل ضوءُ القمر ليُنيرَ ذلك المدخل تاركًا الظلام مُعششًا داخله .. أشعلَ الشمعة في يدِه.. استكشفَ بها جُدران ذلك النفق المهجور.. جدرانًا خرسانية .. هناك قضبان مُلقاة على الأرض.. يا له من نَفقٍ كبير لا يرى آخره.. اخترقَ بشمعتِه ذلك الظلام الموحش الساكن لأكثر من ستين عامًا.. أخبرَه عزيز أن ذلك النفق لم يقترب منه أحدٌ

منذ تلك الحادثة .. تعالت صرخاتُها.. اقتربَ أكثر.. تقدّم فاروق غير مُبالٍ بالخطر الذي يُداهِمُه.. التفت إلى يسارِه.. إنها طُرقةٌ طويلة جانبية.. إن صوت الفتاة نابعٌ من تلك الطُرقة.. دَخَلَها .. تحمله قدماه المُصِرّتين على تكشُف الأمر .. وَصَلَ لنهايتها.. أصبحَ صوتُ الفتاة قريبًا للغاية.. لا يفصله عنه سوى ذلك الحائط الأصم الواقف أمامه..
تحسَّس بيدِه ذلك الحائط جيدًا.. تحسَّس كُلَّ شبرٍ فيه واثقًا بأنه سيجِدُ غايتَه.. وَجَدَ مقبضًا معدنيًا أعلى اليسار.. أدارهُ بيدِه.. دقاتُ قلبِه تتعالى.. باب وراءه المجهول يقبَعُ مُتربِصًا .. أصرّ على المُضي قُدُمًا وراء فُضوله.. جحظت عيناه وذلك الحائط ينفتح أمامه وكأنه مغارة علي بابا.. أمسكَ شمعته بتوتُّر شديد.. لكنها لم تكن مغارة.. ذُهِلَ حين وجدَ نفسه في غُرفةٍ مُهندمةٍ مُرتَّبة.. وكأنها غرفةٌ بمنزل يملؤها الأثاث.. استكشفَ بشمعته المكان.. صورة مُعلقة على الحائط لطفل صغير.. إنه نفس الطفل الذي رآه في تجربة الشريط السابقة بفصوص مُخِّه .. كانت الغرفة مليئة بلُعب الأطفال والدُمى..
جحظت عيناه حين رأى شابًا واقفًا بجوار الصورة المُعلقة على الحائط.. ذلك الشابُ المُمسك بكمان موسيقي يعزف عليه لحنًا حزينًا.. يبعث في النفس الحُزن والحسرة..
شابٌ في مُقتبَل العمر.. لا يدري المرجوشي لماذا دمعت عيناه حين استمع لهذا اللحن..
كان لحنًا ينفذ إلى القلب.. اقتربَ أكثر من ذلك الشاب.. رأى ملامحه جيدًا.. العجيب أن الشاب لم يرَهُ ولم يُعِرْهُ أيَّ اهتمام وكأنه غير موجود.. كان صوت الفتاة الصارخة اختفى حينها.. استمع لصوت رجل بجوارِه فجأة.. استدار يراهُ.. دنا منه أكثر.. رجلٌ في السّتينيات من عُمره.. قويُّ البنية.. أبيض الشعر تمامًا.. شعر فاروق إنه يعرفه.. دَقَّق في ملامِحه.. اعتصرَ مُخَّه.. إنه يعرفه.. حاولَ أكثر.. لم يستطِع.. كان الرجلُ مُمسِكًا بسيدةٍ في الثلاثينيات من عُمرِها بوحشيةٍ يُجرجِرُها مِن شعرِها.. تعالى صوتُه عاليًا ليطغى على لحنِ الشابِ الحزين:

- إنتي تقرطسينى أنا.. 9 سنين مفهماني إنها بنتي.. 9 سنين وانتي بتشتغلينى يا واطية يا سافلة

كانت تلك السيدة تصرخ منهارة:

- أرجوك يا طلعت.. سامحني.. أبوس إيدك.

كان المرجوشي مُنهَك القُوى تمامًا.. لم يدرِ: هل الذي يراهُ الآن حقيقة أم خيال؟ تساءل داخلَه عن ذلك الرجل .. بحثَ بشوارع ذاكرته التائهة عن ملامِحه..

كان هناك فتاةٌ صغيرةٌ تبكي بجوارهما.. ممسكة بدمية صغيرة بيدها.. تفحّص فاروق ملامِحَها بشمعته.. إنه يعرفُها أيضًا.. وجهُها القادِمَ من سَفَرٍ بعيد .. تلك العينان الصغيرتان .. تبًا لتلك الذاكرة .. أمسَكَ رأسَه .. سَيطرَ الصُداع مرةً أخرى على مُؤخرة رأسِه ..

لم يتذكّر فاروق أن ما يراهُ هو والده اللواء المُتقاعد طلعت المرجوشي.. لم يُدرِك أنه

في تلك الغرفة المحظورة بذاكرته.. التي حاولَ - مِرارًا وتكرارًا - من قبل مَحوَها تمامًا من دفاتر ذكرياتِه.. لكن يبدو أنه لم يستطع.. شاءَ القدر أن ترسخ لتكون النواة لاستعادتِها .. شَعُرَ بصُداعٍ رهيب.. انقبضَ قلبُه.. استمرَّ الشابُ في لحنِه الحزين .. زادَ إيقاعُ عزفِه..

كانت الفتاة الصغيرة جميلة .. عيناها تشعّان بلونهما الأزرق .. شَعرُها أسود حالِكُ السواد.. لم يتذكَّرْ أن تلك الفتاة هي أخته.. أخته من والده المتوفاة .. لم يُدرِكْ أن ذلك الموقف كان شاهدًا عليه بالماضي.. شاهده الوحيد .. وليس ذلك فقط.. إنما هو مَنْ شارَكَ في طَمْسِ معالِمِه بعد ذلك..

فجأةً امتلأت الغرفةُ بأشخاصٍ أشكالُهم غريبة.. قِصار القامة.. أقزام .. أطوالهم لا تزيد عن سبعين سنتيمترًا.. عِراض الجباة.. ذوو عيون واسعة مُرعبة.. حليقو الرؤوس.. لهم آذان طويلة.. عُراة إلا من قطعة قماش تستر عوراتهم.. جلودهم دكناء اللون.. انتقل بالشمعة بينهم مرعوبًا.. وجوهُهم الجامدة تُرعِبُ مَن يلمحهم لأول وهلة.. امتزجت أصواتُهم مع ذلك اللحن الحزين.. نَطقوا بإيقاعٍ مُرتَّبٍ وكأنهم فرقة من الكورال الغنائي.. كانوا يُردِّدون كلمةً واحدةً بإيقاعٍ مُخيفٍ يبعثُ في نفس المرجوشي الرُّعب والقلق:

- برمودا.. برمودا.. برمودا.. برمودا.

اقتربت الفتاة الصغيرة من ذلك الرجل باكيةً:

- كفاية يا بابا.. متزعلش ماما كفاية كده.

كان الرجل في ثورة عارمة .. لَطَمَ خدَّها الصغير بيدِه بقوةٍ قاسيةٍ:

- اخرسي.. متقوليش بابا دي خالص.

صرخت فيه السيدة وهي تحتضنها باكيةً:

- إنت مش بني ادم.. إنت حيوان.

زادَ الرَّجلُ في ثورته مع تصاعُد أصوات هؤلاء العُراة المالئين الغرفةَ:

- برمودا.. برمودا.. برمودا.. برمودا.

اختطفَ الرجلُ الشمعةَ مِنْ يَدِ فاروق.. اختطفَها وكأنه يَراهُ:

- أنا بقه هحرقهالك.

زاد الشابُ في ايقاعِ عَزفِه.. تعالى لَحنُه الحزين مع أصواتِهم.. رَغِبَ حينها فاروق أن يهرب من ذلك المكان المُرعب.. لكنَّ قدميه لم تسعفاه لذلك.. حالة من الهَرَجِ والمَرَجِ بالغُرفة امتزجت ببكاء الأم والطفلة. أمسكَ الرجل بالشمعة والشَّررُ يتطايرُ من عينيه، صَرَخَ فاروق فيه:

- لالالالالالالا بلاش.. بلاااااااااااااااااااااااااااااااااش.

صَرَخَ وهو لا يدري أنها نفس صرخته بالماضي.. أمسكت النيرانُ في الفتاة الصغيرة.. احترقت وهي تجري وسط الغرفة كالمجنونة.. كانت تصرخ نفس الصرخة العالية التي جذبته إلى داخل ذلك النفق.. تعالت أصواتُهم:

- برمودا.. برمودا.. برمودا.. برمودا.

اشتعلت النيرانُ في كل الغرفة.. كان هذا من الأسرار الدفينة بحياتِه.. ضحّى وقتها بكل مبادئه وبشرف مهنتِه من أجل والدِه.. والده الذي فَقَدَ صَوابَه حين اكتشف أن زوجته الجديدة خدعته.. نسبت إليه تلك الطفلة المجهولة الأب بعد أن أقنعته أنه والدها حين ولادتها بنت سبعة أشهر.. لم يدرك خِيانَتَها إلا بعد استماعِه بالمصادفة لمُكالمةٍ بينها وبين رجلٍ آخر يُهدِّدُها بأنه سيخبر زوجها بتلك الحقيقة إن لم يحصل على المال المطلوب.. كانت تلك المُواجهة بينه وبينها في حضور ابنه فاروق بعدما اتصل به والدُه وطلب منه الحضور سريعًا.. تصاعَدَ الموقفُ حينها .. أحرق المنزل بالكامل بهما.. بعد أن غَلَّقَ عليهما الأبواب.. لم يستمع الأبُ إلى تَوسُّلات فاروق حينها أن يتركهما ترحلان بعيدًا .. لم يَقوَ فاروق على النُّطق بشيءٍ بعدها .. آثرَ الصَّمتَ وأنقذَ والدَه من فضيحةٍ كبرى .. استطاع تحويل محضر الحريق إلى قضاءٍ وقَدَرٍ، وأُغلِقَ التحقيقُ فورًا بعد يومين فقط.. ضَرَبَ بكل معاني الأمانة والشرف حتى ينقذه.. كان ذلك شرخًا كبيرًا في علاقتهما معًا.. لكن سرعان ما التأمَ تاركًا خلفَه ذلك الألمَ النفسيَّ الذي حاول فاروق مِرارًا وتكرارًا أن يتناساهُ..

استطاع فاروق الهُروب من تلك الغرفة المُخيفة جريًا.. كان الرُّعبُ يملأ نفسَه.. خرَجَ إلى الطُّرقة المُظلمة.. تحسّس طريقه في الظلام الحالك.. حاول أن يبتعد بكل قوّتِه.. لاحقتْهُ صرخاتُ الفتاة وكأنها تُعذِّبُه بصُراخِها.. نَظَرَ خلفه.. وجد هؤلاء الرجال العُراة يجرون وراءه .. بوجوههم الجامدة.. حاملين شُعلاتٍ من النيران بأيديهم.. استمرّ هُتافُهم المُرعبُ:

- برمودا.. برمودا.. برمودا.. برمودا.

إنهم يُحيطو به.. صَرَخَ فيهم مرعوبًا:

- إنتم مين.. مييييييييييين؟

استمرُّوا في نُطق تلك الكلمة الباعثة على الذُّعر في نفسه:

- برمودا.. برمودا.. برمودا.. برمودا.

ازدادت الرَّهبةُ داخله حين نَظَرَ حوله .. لم يجد النَّفق كما كان.. الشُّعلات الممسكون بها أوضحت المكان جيدًا.. إنه في تلك الساحة الدائرية التي دخلها من قبل.. إنه في رأسه مجددًا.. صوتُ ضربات قلبه يتعالى في أذنيه.. أصواتُهم تكاد تُصيبُه بالصَّمَم.. ها هي فُصوص عقله على اليسار.. صرخ بشدة مرعوبًا:



- إنتم مين؟ إنتوا جوه دماغي ليه؟ انتم ميييييييييييييييين؟

أمسك رأسه من فرط الألم المسيطر على مؤخرة رأسِه.. صرخَ عاليًا:

- آآه.

نَهَضَ مَفزوعًا من النوم والعَرَقُ يُبلِّل فِراشه.. استيقظَ من ذلك الكابوس المُخيف على أصواتِ العصافير التي تُغرِّدُ لحنَها المُعتاد كل صباح.. نَظَرَ حولَه لم يَجِد عزيز بجوارِه .. غناء الصيادون يتردَّد عن بُعدٍ .. أدركَ حينها أنه كابوس..

خَرَجَ من الكوخ ناظرًا للبحر بلونه الأزرق الساحر مُتنهِّدًا.. أصبح كالمجنون لا يدري: هل ما يراه حقيقي أم وهم؟ تملَّكته الحيرة مُجددًا حين نَظرَ ناحية ذلك النَّفق المخيف.. لاحظ فتاةً واقفةً بالقُرب من مدخل النفق .. تُبلِّلُ قدميها في مياهِه وتنظرُ للأُفُقِ.. شَعرُها أسود حالك السواد، يتطاير بفعل الهواء.. تعجَّب فاروق كثيرًا حين رآها.. إنها فتاةٌ ذات جسدٍ ممشوقٍ.. لأول مرةٍ يرى فتاةً بهذا الجسد في بربونيا.. اعتاد رُؤية النِّساء السمينات لدرجة أنه اعتقدَ أن هذا هو شكل المرأة المُعتاد.. اقتربَ إليها حائرًا.. وَقَفَ وراءها مُحاولًا أن يلفت انتباهَها .. حاول أن يجد طريقةً ليتحدَّث معها.. التفتت حينها الفتاةُ له ناظرةً إليه.. كانت ترتدي فستانًا أبيض اللَّون لافتًا للنظر.. فستانها مكشوف الذراعين يعلن عن غُربتها ببربونيا .. نَظَرَ إلى عينيها.. عيناها صافيتان كلون البحر زرقاوان .. ابتسامتها ساحرة.. لم يَقوَ على الحديث معها.. سَحَرَهُ جمالُها.. غَرِقَ بلون عينيها .. ابتسم لها .. بادَرَتْهُ هي بالحديثِ مُبتسمةً:

- إزيك يا فاروق؟

كان ذلك مفاجأةً له فسألها مُتلهِّفًا:

- فاروق؟ فاروق مين؟ إنتي تعرفيني؟ هو أنا اسمي فاروق؟

نَظَرَتْ إلى البحر وبنفس الابتسامة أجابته:

- أحيانًا أسئلتنا بتكون ليها إجابات توجع..

صمتت لحظةً حاولَ فيها المرجوشي أن يُدركَ معنى حديثها ثم أكملت:

- فيه ناس كده لما تتقابل تحس إنك تعرفها من زمان.

كان هناك شيءٌ داخله يُخبِرُه بأنه يعرفُها جيدًا.. قلبه يهمس له بذلك.. لكنَّ ذاكرته اللعينة لا تسعفه بشيءٍ.. نَظَرَ لها حائرًا:

- مش فاهم؟

نَظَرَت حينها في عينيه واقتربت منه كما تقترب الحبيبةُ مِنْ مَعشوقِها وهمست له في سِحرٍ وجاذبيةٍ:

- إنت عارف.. إن الأرواح أنواع؟



نَظَرَ حينها إلى النفق قلقًا.. إن لها نفس شكل تلك الفتاة الصغيرة التي احترقت بالأمس في كابوسه.. شعر أسود طويل وعينان زرقاوان.. تساءل قلقًا:

- أرواح؟

نَظَرَت إلى البحر مرةً أخرى مبتسمةً:

- أه.. فيه روح طفولية زي الأطفال .. وفيه روح متقلبة لما تديك بوكيه ورد تنسى تشيل الشوك فتجرحك.. بس ريحتها الحلوة تصبرك وفيه روح دافية .. تحبها وتحب صوتها .. قربها.. نفسها.. يبقى نفسك تدفيها بروحك..

صَمَتَت لحظاتٍ مُتنهدةً بينما امتلأ وجهُه بالحيرة. اقتربت منه أكثر وأمسكت يديه وهمست له بحبٍ ناظرةً بعينيه:

- إنت روحك دافية قوى.

كانت ابتسامتُها ساحرةً .. قبّلت يدَه.. شعُرَ فاروق بالراحة الشديدة بقُربِها.. أمِلَ أن يرتمي بأحضانها .. رَغِبَ في ذلك بشدةٍ .. نَظَرَت بعينيه بحبٍ شديدٍ وهمّت بالرحيل لتتركه فريسةً لحيرته .. نادى عليها:

- ياااااااااااااااااااااااا

التفت إليه ونَظَرَت له بحُبٍ.

سألها مَلهوفًا:

- هشوفك تاني؟

اغرورقت عيناها بالدموع، ولم تردَ عليه .. انصرفت مُبتعدةً والحيرة تكادُ تقتُله:

- يااااااااااا.. طب انتي مين.. طب.. أنا مين؟ مين فاروق.. يااااااا

لم تلتفت إليه، وغابت تمامًا عن نَظَرِه .. كادت حيرتُه أن تفترسَه .. تساؤلات عديدة تحتاج إلى مَن يُجيبُها.. لا بد أن هناك شخصًا ما سيجيبه عن تلك التساؤلات.. مَن ذلك الشخص المجهول؟

إن الشخص الوحيد القادر على ذلك هو نفسه.. فاروق طلعت المرجوشي.. لم يَعِ المرجوشي أن تلك الفتاة هي نفسها حبيبته.. معشوقته .. أتت لتُساعدَه من الماضي.. إنها من نَسجِ خياله.. من وحي اوهامه هو فقط.. تائهة بشوارع ذِكرياته الضائعة.. ليس لأنها غير قادرةٍ على دخول بربونيا.. ولا لأنها عاجزةٌ عن مساعدته .. ولكن لسبب بسيط آخر .. لأنها ماتت بالفعل.

لم يتذكّر فاروق شهيرة .. الفتاة الصارخة الجمال التي أحبّها بكل حواسّه.. الوحيدة التي امتلكت قلبه .. لم يدرِ أحدٌ بحبّه لها .. كانت شهيرة ابنة ألد أعداء والدِه .. كان من أكبر رجال الأعمال .. اختلفَ هو ووالده منذ أكثر من عشرين عامًا في عمل ما لا يعرف

أحد ما هو.. لكن الجميع يعرف مدى العداء بينهما لدرجة أن حاول كلاهما قَتلَ الآخر عدة مرات.. وبطُرقٍ مُختلفةٍ .. حتى تدخل بينهما اللواء السمني صديق الطرفين ورئيس فاروق بالعمل..

.لم يستطع اللواء السمني تلطيف علاقتهما .. كل ما استطاع فعله هو أن يوقف إيذاء بعضهم لبعضٍ.. ومرَّت الشنون.. ويشاءُ القدر أن تحب ابنه ذلك العدو اللدود فاروق.. تقابَلا مُصادفةً بأحد النوادي .. أحبّها من النظرة الأولى.. كانا يتقابلان بعيدًا عن الأنظار .. غير مُدركين ما ستؤول إليه علاقتهما.. عِشق كلٌ منهما الآخر بشدةٍ.. كانت الملاك الحارس له.. وبعد فترةٍ طويلةٍ من الصراع النفسي قرّر أن يتزوّجها سرًا.. دون عِلم والديهما.. عاشا سنةً من أحلى سنين العمر .. بعدما هربت من قصر والدها واختفت تمامًا.. كانت أسعد أيامٍ في حياة فاروق .. إلى أن باغته ذاتَ يومٍ كابوسُه المُحتمَل .. عَرَفَ والدُها بأمر زواجِه بها.. أتى إلى منزلهما.. وبالخطأ رَفَعَ مسدسه على فاروق لقتله لكنها فدته وتلقّت الرصاصةَ في قلبِها.. قلبها الذي ظلّ ينبض بحبّه حتى ماتت بين يديه..

لم يدرِ فاروق أنه لو تذكّر ذلك سيموت في اليوم مئة مرة كما كان حاله من قبل.. كجثةٍ هامدةٍ دون قلب.. جثة فقدت كل مقومات الحياة.. جثة عاشقة.

جلسَ أمام الكوخ يعتصر رأسه دون أن يصل لأيّ شيءٍ.. مُتعجبًا من هذه الأحداث التي يتعرض لها.. مُنتظرًا ما ستؤول إليه الأيام القادمة..

شردَ مُبتسمًا حين تذكّر كلامَها الساحر:

- إنت روحك دافية قوي.

إنها حقًا فتاة ساحرة.. تمنّى وقتها أن يراها ثانيةً.. أن يتكلم معها.. أن يعرفها .. ابتغى لقاءها ولو مرةً .. أملَ أن تكون هذه الفتاة .. فتاةً من الماضي.



تحتَ سَفحِ الجَبَل

اصطحبه عزيز شريف تلك الليلة المُمتلئة بالغُيوم إلى وسط المدينة.. كان فاروق شاردَ الذِّهن، مُكبّلًا بتساؤلاته القاتلة.. حاول عزيز أن يُهوِّن عليه داخل ذلك التوكتوك الصغير في طريقهما مُبتسمًا ومُربتًا على كتفِه:

- روق.. روق يا صديقي.. ربنا قبل ما يبلي بيدبر.

ابتسمَ له المرجوشي ابتسامةً يائسة.. شردَ بعدها في تلك الأكواخ البيضوية على جانبي الطريق.. كانا في طريقهما إلى ذلك الاحتفال وسط المدينة.. الاحتفال المُعتاد منذ ستة أشهر في بربونيا.. يتجمّع فيه كلُّ الصيادين وعائلتهم حتى منتصف الليل.. اختاروا الساحة الكبيرة أمام مخزن الأسماك الكبير تحت سفح الجبل.. كان ذلك المخزن مِلْكًا لهم جميعًا .. اشتركوا جميعًا في إنشائه حَلًّا لمُشكلاتهم .. كانت بضائعهم تفسد في الماضي بمجرد بقائها لليوم التالي لصيدها، فكانوا يضطرون لبيعها بأبخس الأسعار للدولة.. لكن أحوالهم تغيرت كثيرًا إلى الأحسن منذ ستة أشهر، وأصبحوا يُخزنون بضائعهم في تلك الثلاجات الكبيرة في مخزنهم الكبير.. كانوا يحتفلون بتلك الساحة مرةً كل شهرٍ .. يتجمّعون ويسهرون.. يغنون ويرقصون حتى منتصف الليل في جَوٍّ من البهجة والفرح..

ابتسمَ له عزيز مرةً أخرى:

- أنا عاوزك تخرج من اللي إنت فيه.. بطل تفكير وفك شوية في الحفلة .. هتنبسط.

نزل الاثنان من التوكتوك أمام تلك الساحة الشاسعة .. كانت مليئةً بأهالي بربونيا الفرحين بشدةٍ.. رحّب الجميع بهما.. الجميع يُغني ويَرقُصُ في فرحٍ تراه بوجوهِهم.. تتلألأ ملابسُهم تحت إضاءة تلك الكشافات العالية المعلقة على سطح المخزن ومُوجّهة للأسفل.. حالة عارمة من البهجة طغت على وجه المرجوشي حينها.. جذبته تلك الضحكات النابعة من وجوههم المُتشقّقة.. ابتسم عزيز مُشيرًا للمرجوشي:

- ده بقه يا سيدى المخزن اللى حكيتلك عنه.. وادي الجبل أهو.

كان جبلًا شاهق الارتفاع .. لا ترى قِمّته المُختفية في الظلام ..

استقبلهما عم أحمد ذلك الصياد الذي اعتاد الغناء بالقُرب من كوخهما:

- يا أهلًا يا أهلًا يا باشمهندس. يا أهلا بالأستاذ فريد.

قالها مادًا يَدهُ تجاه المرجوشي، سأله مُندهِشًا:

- فريد مين؟



هَمَسَ له عزيز:

- فريد شريف.. ابن عمي.

ابتسمَ المرجوشي مُصطنعًا الابتسامة ومُحييًا عم أحمد:

- آه فريد شريف.. ابن عمه.. أهلًا أهلًا .. إزيك يا حج.

تودّد إليهم عم أحمد:

- اتفضلوا .. والله الحفلة نورت..

اصطحبهما إلى كرسيين خشبيين وسط الساحة وأجلسهما:

- سمعتوا آخر نكتة؟

ابتسمَ له عزيز:

- قول يا عم أحمد يا جميل.

- بيقولك مرة واحد صياد اصطاد سردينة.. قعد يعيط جنبها ويقولها.. سامحني يا ابه.. سامحني يا ابه.. سامحني يا ابه.

ضَحِكَ بشدةٍ هو وعزيز بينما دُهِشَ المرجوشي من ضحكهما، هَمَسَ له عزيز بعدما انصرفَ عم أحمد

- إنت مبتضحكش ليه؟

- أضحك على إيه؟

- يبني سردينة .. سردينة.. زيّ السردين.. افتكره أبوه يعني.

استمرَ عزيز في ضحكِه بينما انشغلَ المرجوشي في متابعة هؤلاء الموجودين بكل أنحاء تلك الساحة .. شغلته تلك البهجةُ المُنبعثة من ابتساماتهم .. سحرته تلك الموسيقى الصادرة من تلك السماعات الكبيرة الموصلة بكاسيت كبير أسود اللون وسط الساحة ..

هَزَّ المرجوشي رأسَه مُستمتعًا بالموسيقى .. الجميع يرقص ويصفق .. رقصَ الرجال مع زوجاتِهم ذوات الأوزان الثقيلة.. يرقصون على صوت محمد منير ..

كانت أغنية (الفرحة) .. جاء صوتُه ليبعث فيهم الفرحَ والسعادةَ:

- عيش وقتك عيش أيامك الدنيا براح قدامك

والضحكة تهون أي جراح..

على إيه تنزل دمعاتك لو يوم عداك أو فاتك

احلم بالجاي تعيش مرتاح..

الدنيا لو جارحة لونها لون فرحة



ما هو إيه بيطول عمر الواحد غيييير.. غير الفرحة..

أعجبته كلماتُها.. شَعُرَ أنه يُغني له .. بدأ يُدندن معهم مُنفصلًا تمامًا عن حيرته وتساؤلاته التي لا يجد لها إجابةً.. وكأنه قرَّر تنفيذ ما يستمع له على الفور .. ملأت الابتسامة وجهَه .. إلى أن انتهت الأغنية وعادت الموسيقى مرةً أخرى .. استنشقَ الهواء وكأنه يتنفس لأول مرة.. كان يشعر بالراحة الشديدة وسط هؤلاء.. اندمج معهم في فَرَحِهم ..

لاحظ المرجوشي هؤلاء الرجال الذين قابَلهم في كوخ المُعالِج في أحد الجوانب يضحكون ويرقصون.. تفاجأ بالمُعالِج يقف أمامَه وهو مُبتسمٌ:

- إزيك يا فريد..

وَقفَ المرجوشي مُحييا إيَّاه:

- أهلًا أهلًا .. الحمد لله.

- إزيك يا عزيز .. ها أخبار العلاج إيه؟ الذاكرة بقت تمام؟

كتم عزيز ضحكته بينما جاوبه المرجوشي:

- تمام .. تمام.. بس هي ريحتها جامدة شوية.

- معلش معلش استحمل يا بطل.. استحمل .. العلاج بيبقى صعب .. يلا استمتع .. عيش.. عيش حياتك

تركهما وانخرط في الرقص وسط الجميع .. ضحكا حينها عاليًا .. تعجَّب بعدها المرجوشي كثيرًا من خِفَّة هؤلاء النسوة السَّمينات في الرقص .. استرجع حينها تلك الفتاة الجميلة التي قابَلها أمام النفق المُخيف صباح ذلك اليوم.. .ما زال يتذكَّرها جيدًا .. ملامحها محفورة داخله.. استمعَ إلى صوتِها في أذنيه يتردَّدُ..

- انت روحك دافية قوى ..

مالَ على عزيز وهَمَسَ له:

- إلا قولي يا عزيز .. هي الستات هنا كلها نفس الحجم ده؟

- تقصد الطخن يعني.. آه طبعًا .. الطخن هنا هيبة .. الست المليانة تملى كده عين جوزها مش زي الدول التانية.. تلاقى الستات معصعصين كده لو نفخت فيهم يطيروا.

- يعني مفيش في بربونيا ستات رفيعة؟

- لا يمكن .. دي كانت تتطلق ويهجروها بره البلد على طول.. مرة زمان كان فيه واحدة رفيعة.. كانت العيال الصغيرة تزفها في الشارع وتقول.. المعزة أهي أهي.. المعزة أهي أهي.. لحد ما هجروها من البلد خالص.

عادت الحيرةُ مرة أخرى تملأ عينيه .. إذا كان الأمر كذلك إذن مَن تلك الفتاة التي



قابَلها ذلك الصباح؟

ظَهَرَ عم أحمد مرةً أخرى حامِلًا لهما كوبين من الفخار، ابتسمَ عزيز له:

- بنفسك يا عم أحمد؟

- يا سلام يا باشمهندس .. هو إحنا عندنا أغلى منكم.. اشربوا العصير لحد بس ما أم أحمد تعملكم طبقين معتبرين عشان تتعشوا.. سمعتوا آخر نكتة؟

- قول يا عم أحمد .. قول..

قالها عزيز بعدما نَظَرَ إلى فاروق الشارِد.

- بيقولك مرة واحد صياد اصطاد سمكة قرش.. قاموا قابضين عليه وسجنوه بتهمه إهانة السيد الرئيس؟

ضَحِكَ عزيز بشدةٍ .. نَظَرَ للمرجوشي بعدما انصرف عم أحمد:

- عم أحمد ده أطيب واحد هنا في البلد .. الناس كلها بتعتبره كبيرها .. وهو كمان راجل جدع الحقيقة ..

لاحظ عزيز شرود المر جوشي:

- وبعدين يا صحبى.. ما تفك شوية بقه.. وارمي ورا ضهرك.

- أنا حاسس إني تايه ..

- حاول تنسى.. واندمج معانا .. وذاكرتك مسيرها ترجع .. متستعجلش.

ابتسم فاروق مُربتًا على يد عزيز:

- أنا متشكر قوي يا عزيز على كل حاجة.

- لا ده أنا اللي لازم أشكرك على الوحدة اللي ودعتني من يوم مانت ظهرت.. ولو سمحت أنا مش عاوزك تقلق خالص.. طول مانا جنبك متقلقش.. يمكن ربنا جعلني سبب عشان أقف جنبك لحد ما ذاكرتك ترجعلك

ملأت الابتسامة وجهه .. كان يشعر بداخله بحبٍّ كبير تجاه عزيز.. وكأنه صديق عمره ..

توقَّفت الموسيقى ونادى أحد الصيادين بعلو صوته وهو يقدم أحد المطربين قبل دخوله إلى

الساحة الكبيرة..

- والآن.. أيها الصيادين الكرام مطرب بربونيا.. مطرب الروائع.. اللي على طول بيضحكنا.. ومن قلبنا

اللي مننا.. وجاي يباركلنا.. ويشاركنا فرحنا .. المطرب .. ابراهيم كابوريا!!!!!!!!!!!!!!!.

صفّق له الجميع بشدة.. ظهَرَ ذلك المُطرب مُحييًا الجميع.. مُرتديًا مثلهم زيّ السردين.. بدأ في الغناء والتف الجميع حوله بفرحة عارمة .. تغنّى بأغنيةٍ لإسماعيل ياسين نشرت الفرحة أكثر فيهم:

- متستعجبشي.. متستغربشي.. فيه ناس بتتعب ولا تكسبشي وناس بتكسب ولا تتعبشي.. متستعجبشي.. متستغربشي نقول مع بعض يالا.

رَدّدَ الجميع وراءه الأغنية.. وردّد معهم المرجوشي مُندمِجًا وسطهم.. كانت فرصة جيدة ليخرج من تلك الدوامة التي أُلقيَ فيها عَنوةً دون إرادته.. أحيانًا يكون البحث عن الذات أسوأ من فِقدانها.. أحيانًا يصبح التّوهان عادة مُفضلةً .. عندها يصبح النسيان هو الحل الأمثل.

كان الحفلُ رائعًا بكل المقاييس.. تمنّى المرجوشي حينها أن يعيش باقي عُمره وسط هؤلاء الناس.. تمنّى لو كان واحدًا منهم بالفعل.. كان مستمتعًا للغاية.. لكن القدر لم يُمهلْه حتى لالتقاط أنفاسه قليلًا.. وكأن المصائب كُتبت على جبينه دائمًا.. استمعَ إلى صوت طلقات رصاصٍ متتاليةٍ قادمة من ناحية المخزن.. كان صوتُها عاليًا .. نَشَرَ الذُّعر بينهم .. توقّفوا عن الغناء .. جحظت أعينهم.. هرولوا ناحية مصدر الصوت.. لم يصدقوا أعينهم حين رأوا النيران تلتهم المخزن بأكلمه وعم أحمد الصياد مُلقًى غارقًا بدمه أمام المخزن، يُصارعُ أنفاسه الأخيرة ..

اقتربَ منه عزيز حاضنًا إياهُ .. كانت الصدمة كبيرة عليهم جميعًا.. أطيب مَن فيهم يموت دون أن يستطيع أحدُهم إنقاذَه. احتضنه عزيز وهو يلفظ أنفاسَه الأخيرة هامِسًا بصوتٍ خافتٍ:

- سمعه.. سمعه..

اقترب عزيز بأذنيه من فمِه ليسمع ما يقول:

- بتقول إيه يا عم أحمد؟

- سمعه.. سمعه الأعور.

نَفذَ صوتُه الخافِت للمرجوشي .. لم يسمعه أحدٌ حينها سواهما.. كانت تلك هي المرة الثانية التي يستمع فيها لاسم نفس الشخص ذلك اليوم.. إنه نفس الشخص أعور العين اليُمنى وكأنها عنبة طافية.. الذي كان يتابعهما ظهيرة ذلك اليوم.. عندما رافَق عزيز إلى السوق لشراء بعض الطعام.. وكأنه كان يُراقِبُهما .. كان شخصًا سمينًا.. ذا شعر كثيف .. أسود اللون.. وملامح الإجرام تقفز من وجهه .. تقرأ بين عينيه التوحُّش .. كانت ملامحه مميزه.. لم يلحظه عزيز في بادئ الأمر إلا بعد أن نبّهه المرجوشي أنه يُراقبهما.. وما إن رآه حتى فَرّ هاربًا في توكتوك وسط تعجُّب فاروق.. ولم يهتم عزيز بالأمر وتابَع شِراء طعامهما طالبًا من المرجوشي ألّا يشغل باله:



- متشغلش بالك يا صديقي..

سأله حينها مُستفسرًا:

- مين ده يا عزيز؟

فأجابه بتلقائيةٍ:

- ده سمعة الأعور.. وأكيد وراه مصيبة..

تعجب المرجوشي حينها كثيرًا من ذلك الهدوء المتحدث به عزيز.. لكنه لم يدرك أنهم تعودوا في بربونيا على مثل تلك الأمور.. أصبحت عادية.

لفظ أبو أحمد أنفاسه الأخيرة ومات بين يدي عزيز.. بكى الجميع بحُرقةٍ.. انتهى احتفالُهم بموت أطيبهم.. نهاية درامية غير متوقَّعة.. لم تكن المرة الأولى التي يحترق فيها ذلك المخزن .. تكرَّرَ الأمر ثلاث مرات من قبل .. يبدو أن هناك مَن يرغبُ في ضَرَرِهم دائمًا.. وكانوا يكتفون كل مرة بإعادة إنشائه من مُدخراتهم سريعًا.. والعجيب أنهم لم يلجؤوا في أيٍّ من تلك المرات إلى الشرطة .. كانوا يُؤثرون الهدوء والبُعد عن السُلطة حتى وإن كان لهم الحقُّ في شكواهم.. والأعجب أنهم لم يبلغوا الشرطة أيضًا هذه المرة .. اكتفوا بتغسيله وتكفينه ومع الشعاع الأول للشمس بالصباح صلوا عليه صلاة الجنازة .. وقف وسطهم المرجوشي .. علمه عزيز كيف يُصلي صلاة الجنازة.. اعتصرَ الحُزنُ قلبه وهو يُشاهد ذلك الرجل الطيب يواريه الثرى في تلك المقابر القريبة من الجبل .. هكذا وكأنه كلب ضال لا قيمة له .. عصفت به مشاعره تلك اللحظة تحوَّل من منتهى الفرح لمنتهى الحُزن في لحظاتٍ متقاربةٍ تحت سَفحِ الجبل .. امتلأت عيناهُ بالدموع .. لم يدرِ لماذا يبكي؟

عاودَهُ ذلك الصُداعُ اللعين في مُؤخرة رأسه.. اشتدَّ عليه بقوةٍ.. بدأ الجميع في التلاشي من حوله .. انتشر ذلك الضوء الأحمر حوله كالمُعتاد.. نَظَرَ حوله .. إنه مُجدَدًا داخل رأسه.. يرى فصوص مُخه عن قُربٍ.. تلك الإشارات الكهربائية حوله في كل مكان .. لكن الجديد هذه المرة أن رأسه ممتلئٌ بعددٍ غفير من الناس .. والدموع تملأ أعينهم جميعًا.. كان وسطهم ذلك الرجل الذي رآه في كابوسه السابق.. ذلك الرجل الذي أحرق الطفلة الصغيرة بقسوةٍ.. لم يدرك هذه المرة أيضًا أنه والده طلعت المرجوشي.. ازدادت الدموع بعيني فاروق.. انهمر بالبكاء دون أن يدري لماذا .. اخترق صفوفهم مُقتربًا من فصوص مُخه.. تعالت أصواتُ دقاتِ قلبِه .. زادت الدموع بعينيه.. إنهم يدفنون شخصًا ما.. يدفنونه بأحد فصوص مُخه مُلتفًا بكفنٍ أبيض.. تعالت أصواتُ الواقفين حينها بشكلٍ مُريبٍ ناطقين بكلمةٍ واحدةٍ:

- برمودا.. برمودا.. برمودا.

نَظَرَ لهم فاروق فَزِعًا .. تغيَّرت وجوهُهم إلى تلك الوجوه المُخيفة .. نفس الوجوهِ التي



داهمته في كابوسه السابق.. وجوه هؤلاء الأقزام المَجهولين.. أصرَّ على مَعرفة من بداخِل ذلك الكفن الأبيض لعله يُساعدُه على حَلِّ ذلك اللُّغز اللَّعين.. اقتربَ منه، وكشفَ الغطاء عن وجهه وسط صيحاتهم المُرعبة:

- برمودا.. برمودا.. برمودا.

صُعِقَ فاروق.. إنها تلك الفتاة الجميلة التي قابَلها ذلك الصباح على شاطئ البحر.. إنها ذات العينين الزرقاوين.. إنها هي .. فتحت عينيها فجأةً.

نَهَضَ حينها مَفزوعًا ليجد نفسه بمفردِه على سريره بالكوخ.. تسلَّلَ القمر ليُلقي بضيائه على وجهه.. أدركَ أنه كابوس جديدٌ يُضافُ إلى ما سَبَقَ.. لم يعد يدري أيَّ شيء.. أصبح كريشةٍ في مَهبِّ الرِّيح.. تتناقله من مكانٍ لآخر.. تصفعه مشاعرُه المُتضاربة دون حتى أن يفهم مغزاها.. ففي ليلةٍ واحدةٍ تعرِّض قلبُه للنقيضين في آنٍ واحد.. الفرح والحزن.. البهجة والنواح.. الدماء والسعادة.. تلاطمت مشاعِرُه المُتضاربة كأمواج البحر المتصادمة .. تحت ذلك الجبل الشاهق .. ليلة لن ينساها أبدًا.. ليلة تَحت سَفح الجبل.



مَملَكَة الشَيطَان

غَرِقَ عزيز في أحزانِه أمام كُوخِه الصغير.. نَظَرَ إلى الأُفُقِ البعيد مُختنقًا .. انتشر الضبابُ هذه الليلة أكثر من أيِّ ليلةٍ سابقةٍ.. امتلأت السماءُ بالغيوم المُتراكم بعضها فوق بعضٍ .. تردَّدت صرخات تلك الفتاة بين الحين والآخر داخل ذلك النَّفق اللَّعين..

جلس المرجوشي بجوارِه والحيرةُ تُمزِّقُ رأسَه.. أشفقَ عليه كثيرًا لكنه لم يَقوَ على كتمِ تساؤلاتِه القاتلةِ .. نَظَرَ له مُستفسرًا:

- أنا مش قادر أفهم .. إزاي متقولهومش على المجرم ده؟ ليه مقولتش على اسمه؟ وليه محدش رضي يبلغ البوليس.. ليه؟

نَظَرَ له عزيز والدُّموع مُحتبِسةٌ بعينيه.. خرج صوتُه مُختنقًا بين أحباله الصوتية المُرتعشة:

- وإيه هيفيد؟ تفتكر لو قولتلهم عم أحمد هيرجع؟ لو قولتلهم المخزن كان هيرجع زى الأول؟ إيه الفايدة؟

استنكرَ فاروق هذه الانهزامية المُستفزة التي يستشعِرُها مِن عزيز.. ربما حِسُّه الأمني المدفون بداخله يُحرِّكُه الآن:

- لا الكلام ده مش مظبوط.. مجرم وقتل واحد منكم.. وحرق مخزن ملك الكل.. لو اتساب هيعمل جريمة ورا جريمة من غير عقاب .. لازم يتمسك وياخد جزاءه.. العدل بيقول كده.

ابتسم عزيز بسخرية ممزوجة بحزنٍ دفينٍ يعتصر قلبه:

- عدل؟ إنت مش فاهم أي حاجة؟

- طب فهمني؟

نَظَرَ له مُتردِّدًا

- لا .. مينفعش يا صديقى.. مينفعش..

كان هناك سرٌّ كبيرٌ يحتفظ به عزيز.. سرٌّ مدفون داخله يخشى عليه من معرفته، كان صوت الفتاة الصارخة يتعالى أكثر وأكثر كالعادة.

- يعني إيه مينفعش.. هو إيه اللى بيحصل بالظبط؟ وبعدين ليه كان بيراقبك الصبح في السوق؟

- اسمع.. الناس هنا مسالمين.. مش بتوع مشاكل.. وحتى لو عرفوا مش هيعملوا حاجة.



- كلام غير مقنع.

- شمعه الأعور ده بلطجي .. عيل شمحطجي .. عليه 3 أحكام إعدام وهربان وبيعمل اللي هو عاوزه في الوقت اللي هو عاوزه برضه.. تفتكر هيحصله حاجة لو بقوا أربع أحكام؟

كان شمعه الأعور شخصًا سيئ الطِّباع.. مكروهًا من الجميع.. من أولئك المجرمين بالوراثة.. فقد عانى أهالي بربونيا القدامى كثيرًا من إجرام والده قبل أن يموت محترقًا في ظروفٍ غامضة.. عاش بعدها شمعه مُتفانيًا في كل أنواع الإجرام المُعتادة وغير المعتادة.. حتى أنه استحدثَ طريقةً جديدةً للسَّرقة .. كانوا يعرفون أنه السارق بمجرد رؤية هرة مذبوحة بمكان الحادث.. تكرَّرَ ذلك كثيرًا.. كان يرغب في إيصالِ رسالةٍ إليهم جميعًا.. يريدُ إخبارهم أنه ميت القلب .. وعلى الرغم من شُهرته وإجرامه .. لم تتمكّن الدولة قط من الإمساك به.. حتى بعد صُدور أحكام الإعدام عليه.

تعجَّب المرجوشي كثيرًا:

- يعني البوليس مش عارف يمسكه؟

- قولتلك إنت مش فاهم حاجة..

- وأنا قولتلك فهمني.

نَهَضَ حينها عزيز بعصبيةٍ صارخًا فيه:

- وأنا قولتلك مينفعش.. مينفعش..

تعجَّب المرجوشي كثيرًا من عصبية عزيز.. إنه يُخفي شيئًا ما لا يدري ما هو.. سيطرَ الصَّمتُ عليهما فترةً.. دخلَ الجفاءُ بينهما بعد كل الودِّ والمحبة .. صوت الفتاة يتعالى أكثر وأكثر .. كان يُثيرُ الرُّعب في قلبِه.. وكأنه صوتٌ يُناديه من ماضيه المجهول. نَهَضَ إلى عزيز.. وَقَفَ أمامه .. نظر بعينيه..

- أنا خايف..

ربت عزيز على كتفه وكأنه يعتذر له:

- أنا آسف.

سالت الدموع من عيونهما .. احتضنَ كلٌّ منهما الآخر .. سأله المرجوشي وهو يحتضنُه:

- هو فيه حاجة اسمها برمودا؟

جحظت عينا عزيز بشدةٍ.. لم يكن يتوقَّع أن يسمع هذا الاسم مُجدَدًا ومن فاروق خصوصًا.. شعرَ أن هناك أمرًا ما يُدبرُ في الخَفاء.. وَثَبَ الشَّكُ والرِّيبة إلى قلبِه .. حاولَ كثيرًا أن ينسى ذلك الوَهْمَ المُستترَ وراء ذلك الاسم..



قفزَ إلى ذاكرته ذلك اليوم الذي بكت فيه جدتُه كثيرًا.. بكت وهي مُمسكةٌ بتلك البرقية الأخيرة من جدِّه.. بكَتْ بعد قراءةِ جملتها الوحيدة:

(أتمنى أن تكوني بخير وسلامة دائمًا)

كانت تلك البرقية إثباتًا أنه ما زال على قيد الحياة.. استلمتها بعد اختفائه بثلاثة أسابيع في تلك الرحلة المشؤومة .. وظلّت بقية حياتها مُحتفظةً بتلك البرقية أملًا في عودته.. طالما كانت تقصُّ له قصة حبهما.. كيف التقيا؟ كيف تزوجا؟ كيف شقَّا طريقهما معًا على أراضي الولايات المتحدة الأمريكية؟ كيف انتقلَ من عملٍ إلى آخر حتى استطاع أن يعمل بمهنتِه طيارًا.. كان ذلك أمرًا غايةً في الصعوبة، ولكنه حدث كالمعجزة.. وكأن القدَرَ يقودُهما إلى نهايتِه الغامضة..

نَظَرَ إلى المرجوشي والقلق يكادُ يقفز من عينيه:

- إنت بتقول إيه؟

- بقولك فيه حاجة اسمها برمودا؟

- وإنت بتسأل ليه السؤال ده؟

- جاوبني بس..

أمسكَه حينها من كتفيه.. حادَثه بحدةٍ شديدةٍ وبعصبيةٍ مُتناهيةٍ:

- إنت مين؟ انطق.

- معرفش يا عزيز .. معرفش.

- إنت عاوز تقنعني إن سؤالك ده صدفة؟

- يا عزيز.. الكلمة دي بتتردد جوايا كتير.. كأني سمعتها قبل كده.. أنا حاسس إن ليها علاقة باللي حصللي.. أرجوك جاوبني .. يمكن أقدر أفسر أنا إيه اللي حصللي؟ أنا دماغي هتتفرتك.

نَظَرَ له عزيز والشَّكُ يملؤهُ.. تركَهُ عزيز لحظاتٍ دخلَ فيها إلى داخل الكوخ .. نادى عليه المرجوشي:

- إنت رايح فين؟

- خليك مكانك.. جايلك.

خرجَ بعدها بلحظاتٍ واتَّجه إليه أعطاهُ تلك البرقية .. ورقة صغيرة مُستطيلة.. أنهكها مُرورُ الزمن فأصبحت مُهترئةً .. تفحّصها المرجوشي ولم يفهم ما يرمي إليه عزيز:

- إيه ده؟

- أقرا.. .



- قريتها .. ومش فاهم؟

- الاسم اللي على الورقة دي .. اسم جدي.. ده آخر تلغراف جه منه .. كان بعد اختفاؤه ب 3 أسابيع.

- اختفاؤه؟

اقتربَ عزيز أكثر ونَظَرَ إلى عيني المرجوشي والشّكُّ يكاد يقتُله:

- ومحدش يعرف الحكاية دي هنا في بربونيا خالص.

- أنا مش فاهم حاجة..

حدَّثه بحدةٍ وهجومٍ شديدين:

- اسمع بقه.. ما هو حاجة من إتنين.. يا إما إنت جاسوس عليا.. يا إما إنت تعرف حاجة عن جدي .. انطق، إنت مين؟

كان عزيز دائم الشّكّ في أن أحدًا ما سيتجسس عليه يومًا ما .. ولا يدري أحدٌ لماذا يُساوِرُه ذلك الشّكُّ دائمًا؟ وما الأسرار التي يملكها حتى يفكر في ذلك؟

سالت الدموع من عيني المرجوشي.. صَرَخَ فيه:

- معرفش يا عزيز.. معرفش.. والله ما اعرف أنا مين.. معررررررررررفش.

كان هناك شيءٌ ما داخل عزيز يدفعه إلى تصديقه.. تمالَكَ حينها أعصابَه، وحاوَلَ السيطرةَ على نفسِه.

- أنا هعتبر إن كلامك صح.. بس ممكن تقولي عرفت منين حكاية برمودا دي؟

- حكاية إيه؟ إنت اللي جبت الورقة دي؟ وإنت اللي قولتلي عن جدك؟ ثم أنا اللي بسألك عن كلمة معرفش معناها ومعرفش حتى إيه علاقتها باللي إنت قولته دلوقتي؟

نَظَرَ في عينيه بقوةٍ:

- يعني إنت متعرفش إن برمودا دي تبقى مملكة الشيطان؟

جحظت عينا المرجوشي غير مُصدِّقٍ ما يسمعُ:

- مملكة الشيطان؟

- أيوه مملكة الشيطان .. مثلث برمودا.

شَعَرَ حينها بنفس الصُّداع الشديد بمؤخرة رأسِه.. تألَّمَ كثيرًا.. استمعَ إلى تلك النداءات داخله

- برمودا.. برمودا.. برمودا.. برمودا.

أمسكَ رأسَه من الألم.. اقتربَ من عزيز مُترجيًا إيَّاهُ:

- أرجوك يا عزيز.. أنا عاوز افهم.. إحكيلي كل حاجة تعرفها عن المملكة دي.. أرجوك.

نَظَرَ له عزيز بشكٍ وريبةٍ.. كانت ليلةً مُلبّدةً بالغيوم.. مليئةً بالضباب يُعمي أبصارهم.. وكأنهم أُلْقوا في كوبٍ من اللَّبن المُعكّر ..

بدأ عزيز الحكاية من بدايتِها طالبًا من المرجوشي عدم مُقاطعتِه:

- ربنا عز وجل خَلَق الجنَّ قبل الإنس.. أبو الجن اسمه سوميا.. ربنا قال لسوميا وقتها.. اتمنّى.. فردَّ عليه بعد تفكير أتمنى أن نرى ولا نُرى.. وأن نغيب في الثرى.. وأن يصير كهلُنا شابًا، ربنا حققله أمنيته .. وأسكنه في الأرض له ما يشاء منها .. متستغربش.. ده حصل قبل خلق الإنسان بأكتر من 2000 سنة، ومتسئلنيش عن مصادري.. دي حاجات أنا مقتنع بيها تمامًا.. المهم.. كانوا بيعبدوا ربنا لحد ما جت أمة منهم فسدوا في الأرض وسفكوا دم بعضهم.. وقتها ربنا غضب عليهم وبعتلهم جيش من الملايكة حاربوهم وقتلوا منهم كتير.. واللي اتبقى منهم هربوا إلى الجبال ولجزر البحار استخبوا فيها.. والملايكة وقتها آسرت من الجن جني أسمه إبليس كان صغير وقتها .. خدوه معاهم السما .. وكبر إبليس وربنا إداله منزلة عظيمة.. لحد ما ربنا خلق سيدنا آدم أبو البشر.. وأمرهم بالسجود ليه .. كلهم سجدوا ما عدا إبليس.. إتكبر.. وكانت النتيجة أنه إتطرد من رحمة ربنا، ساعتها طلب منه إن يمدله في حياته حتى يوم القيامة.. واستجاب له .. ومن وقتها وإبليس بيكره آدم أبو البشر وبيتوعده.. هو وذريته عشان يتطردوا زيه من رحمة ربنا.. سكن آدم الجنة .. وخلق له حواء أم البشر.. وربنا إداهم الحرية في كل شيء ما عدا شجرة نهاهم عن الأكل منها .. ودي كانت الثغرة اللي دخلهم منها إبليس ومن غير تفاصيل كتير أكلوا من الشجرة وعصوا ربنا.. بعدها ربنا أمر إن الكل يخرج من الجنة، بسم الله الرحمن الرحيم: (اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين) صدق الله العظيم..

الأرض وقتها كانت صحرا.. زرعها آدم وعاش هو وذريته وتاب واستغفر.. لحد ما مات هو وحواء.. إبليس افتكر إن بموتهم انتهت كل مشاكله وإنه ممكن يظهر علنًا للبشر ويعيش على الأرض براحته.. جهِّز لجيش ضخم من الشياطين والجن ودارت معركة كبيرة بينه وبين

جيش الإنس بقيادة واحد من ولاد سيدنا آدم .. لكنه غلبهم .. وهرب إبليس مرة تانية بعدها زاد الغِلّ جواه للبني آدمين.. قعد يدور على مأوى جديد يحميه هو وشياطينه اللي خسروا في المعركة.. وفعلا اختار مكانًا بعيدًا تمامًا عن موطن الإنس.. بنى فيه مملكته .. وحط عرشه وسط المكان ده.. المكان ده كان منطقة اسمها مثلث برمودا.. فضلت مملكة إبليس بعيده عن الأنظار عبر القرون المتتابعة لحد ما العلم اتقدّم .. وقدر الإنسان يركب السفن.. والطيارات ويسافر بيها.. بقت المملكة مهددة.. عشان كده أي سفينة أو طيارة بتعدي من المنطقة دي بتختفي.. بتختفي تمامًا ومبيلاقوش لناسها أي أثر..



- وجدك؟

سأله المرجوشي متوقعًا ردّه:

- أيوه جدي كان في طيارة من دول.. اختفى ولحد دلوقتي ملوش أثر والتلغراف اللي وريتهولك ده آخر حاجة جاتلنا منه.. وأكدلنا إنه عايش بس فين؟ الله أعلم.. إشاعات كتير طلعت على برمودا.. ناس بتقول إن المكان ده مسيطر عليه وحش ضخم شبه الاخطبوط .. وناس بتقول إن المنطقة دي بيحكمها قوة جذب مغناطيسية كبيرة مختلفة عن المناطق اللي حواليها.. واللي بيدخلها بيتنقل زمان تاني .. سفن كتير اختفت.. وسفن تانية لقوها في أماكن بعيدة.. وبحالتها بس من غير ركابها .. وطيارات ومراكب صيد .. وغيره وغيره وغيره.. لغز كبير محدش قادر يحله لحد دلوقتي ..

سأله المرجوشي متعجبًا:

- وإنت مصدق إن المنطقة دي هي مملكة الشيطان؟

- ده التفسير الوحيد المنطقي.

ابتسم المرجوشي ابتسامةً يائسةً:

- كلامك ده توهني أكتر مانا تايه.

ما زال عزيز ينظر له نظراتٍ مليئةً بالشكّ.. هناك أمر آخر يُخفيه عزيز لا يُدركه المرجوشي..

- اشمعنى الكلمة دي بتتردد في دماغك؟ حاول تفتكر .. حاول.

- مش عارف .. مش عارف

أمسكَ رأسه .. رَغِبَ في اقتلاعها من مكانها.. كادت تساؤلاته تقتُله، ما علاقته بهذه المنطقة الشيطانية؟ لماذا يتردد اسمها داخل رأسه؟ برمودا.. مثلث برمودا.. لم يكن ذلك هو السّرُّ الوحيد الدفين داخل عزيز.. لكن المرجوشي تاه في دوامته الغامضة.. غرق في ألغازِه المُتعدِّدة.. أُضيفَ إليه لُغزٌ آخر .. لُغزُ مَمْلَكَةِ الشّيطان؟



جَريمَة مَمْلكَةِ السَّمَك

بات فاروق ليلته تلك شريدًا تائهًا بأعماقِه الباهتة .. غارقًا ببحرٍ من الرمال النفسيةِ المُتحركة تلتهمُه رُويدًا رُويدًا إلى أن تُخفيه تمامًا داخل أحشائها اللعينة.. استسلمَ إلى النوم هروبًا من واقعِه الأليم أملًا في غدٍ يكشف له ذاته ونفسه التائهة .. رغبة منكسرة ذليلة في استكشافِ الماضي لا حيلة له إلا التعلُّق ببقايا أملِه القاسي.

أغلق عينيه بعد ذلك اليوم العصيب .. أغلقهما بعد أن استلقى عزيز بجواره وساد الظلام بالكوخ .. كان الشَكّ يملأ نفس عزيز .. سؤالٌ مُلحٌ للغاية يُسيطر على تفكيره.. مَن فاروق؟ كان عزيز متوتّرًا للغاية تلك الأيام وكأنه يُخفي شيئًا ما لا يرغب أن يعرفه أحدٌ .. حتى قبل موت عم أحمد كان كثير الشُرود، لكنه يخفي ذلك حتى لا يلحظه أحدٌ.. وعلى الرغم من ازدياد شكّه بفاروق، لكن مشاعره الطّيبة تجاهه ترغمه على الاستمرار بمساعدته حتى يستعيد ذاكرته.. إنه أحبّه بشدة.. وكأنه يعرفه منذ زمنٍ بعيدٍ.. باغته النومُ وهو مُنخرطٌ في التفكير بفاروق .. في حين كان فاروق يُصارعُ النوم مُغلق العينين إلى أن استسلمَ هو الآخر مُؤخّرًا إليه.

مَرّت تلك الليلة ببطء شديد.. أطلّ صباح يوم جديد.. صباح كئيب.. امتلأت السماء بالغيوم المتراكمة .. لم تَغِبْ عنها لحظة واحدة .. حجبت شعاع الشمس بقسوةٍ مَقصودةٍ.. ألقت في النُّفوسِ الحُزنَ المُطبِق.. وكأنها تنعيهم في فقيدهم .. كان الصيادون صامتين.. يعملون وكأن على رؤوسهم الطّيرَ .. الحُزن على الوجوه .. عيونهم مُحتبسة دموعها تكاد تنفجر صارخةً بحُزنها على رَجُلِهم الطّيب ..

لم ينسوا تلك اللحظة الأخيرة .. التي مات فيها كبيرهم أمام أعينهم .. غارقًا في دمائه الطاهرة.. إنهم ما زالوا يشتمُّون رائحتها حتى الآن.. امتلأت أنوفهم بعبق دمائه الطاهرة .. حتى فاروق كان يشتمُّ طوال الليل رائحةَ تلك الدماء.. استمعَ إلى صوت بالقُرب منه .. فَتحَ المرجوشي عينيه بصعوبةٍ.. تصبّب عرقُه بغزارةٍ على جبينه.. خيالات أمام عينيه لمجموعة من الناس يقفون محدقين عيونهم تجاهه.. فرَكَ عينيه بيديه.. دقّق النظر بهم.. إنهم بعض الجنود والضباط .. عرفهم بمجرد رؤية زيّهم الأزرق.. زيّ القِرش كما قال له صديقُه عزيز حين رآهم بأطراف السوق مسبقًا.. إنهم يملؤون الكوخ.. ينظرون له بحدةٍ.. لم يصدق ما تراه عيناه.. هرة مذبوحة في طرف الكوخ .. إنه منظر مُقزّز للغاية .. التفتَ إلى جِواره .. دماء غزيرة تغرق السرير.. جحظت عيناه.. كادت تقفز من وجهه .. عزيز مذبوح بجوارِه .. غارقًا في دمِه .. تمنّى حينها أن يكون كابوسًا من كوابيسه اللّعينة.. نَظرَ إليه كالمجنون .. صرخَ بأعلى صوتِه وكأنه يرفض ما تراه عيناه

- عزيييز.

لم يتركْ له الجنودُ فُرصةً للصُراخ.. هجموا عليه .. أمسكوا به بحدةٍ مُتناهيةٍ، وكأنهم يجرجرونه أرضًا.. اقتادوه إلى خارج الكوخ.. أظلمت الدنيا بعينيه.. صدمة كبيرة لم يكن على استعداد لتحمُلِها .. لم يسترجع وعيه إلا وهو في تلك الغرفة الضيقة.. ممسكًا بورقة بيدِه مكتوبٍ عليها رقم.. يصورونه بها وكأنه مجرم خطير.. أخذوا له بعدها فيشًا وتشبيهًا وألقوه في غُرفةِ التحقيق.. غرفة صغيرة خاوية إلا مِن مكتبٍ مسْتديرٍ خشبيٍّ وأمامه كرسيان صغيران خشبيان أيضًا.. جلس إلى المكتب ذلك المُحقق المدعو ممدوح التَبّاع البالغ من العُمر الخمس والثلاثين عامًا ينظر إليه شزرًا .. كان فاروق جاحظ العينين غير مُصدّق أنه فَقَدَ الشخص الوحيد الذي قدّم له يَدَ العون بتلك المدينة.. فَقَدَ عزيز .. كتَمَ ممدوح غيظَه لحظاتٍ ناظرًا إلى أمين الشرطة الواقف وراء فاروق الذي صفعَه بقوةٍ بدورِه وكأنه اعتادَ ذلك. صرخ ممدوح فيه والشرُّ يتطايَرُ من عينيه:

- متبطل استعباط يالا .. بطل كُهن بقه.

انخرط فاروق في البكاء الهيستيري.. اقتربَ منه ممدوح مُهدّدًا:

- لآخر مرة بسألك: قتلته ليه؟ وإيه علاقتك بيه؟

- مقتلوش .. والله مقتلته.. مقتلتوش.

صَفعه أمينُ الشرطة مرةً أخرى بقوة:

فُتِحَ بابُ تلك الغرفة حينها، ودخل رجلٌ ذو هيبةٍ.. يبدو ذلك واضحًا من نظرات عينيه الواثقة .. وقف ممدوح والأمين انتباهًا له مُؤدّيَين له التحيةَ العسكرية.. نَظرَ ناحية فاروق المُنهار وهَمَسَ بصوتٍ خافتٍ بصيغةٍ آمرةٍ:

- سيبونا لوحدنا شوية.

خَرَجَ ممدوح والأمين على الفور.. أغلقا الباب .. لم يُبعِدْ عينيه الثاقبتين عن فاروق مُطلقًا.. جلس العميد ابراهيم على كرسي المكتب بهدوءٍ وفَتَحَ الملفَّ الخاص بفاروق أمامه .. صورة فاروق بأول الملف .. وبابتسامةٍ مُزيَفةٍ طلب من المرجوشي:

- اقعد يا فاروق يا مرجوشي.

كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها اسمه بعد فِقدانه الذاكرة .. صَمَتَ ولم يُجِبْ وتوقّفَ قليلًا عن البكاء.. شَعُرَ أنه اقتربَ من معرفة ذاتِه .. نَظَرَ له العميد إبراهيم بحدةٍ مُتناهيةٍ:

- اقعد يا فاروق.. اقعد.

جلس المرجوشي مُتوتّرًا للغاية .. وبنفس الابتسامة المزيفة قال:

- فاروق طلعت المرجوشي.. مصري.. مُقدم في الأمن الوطني.. سيبت القاهرة من أسبوعين.. ومشهود ليك بالكفاءة وسط زمايلك.. ما شاء الله ما شاء الله.

لَمَعَت عينا فاروق حينها .. إنه الآن يعرف مَن هو.. الآن وبعد هذه المصيبة جاءه مَن يُخبره من هو.. تلعثمَ كثيرًا مُرددًا اسمه:

- فاروق طلعت المرجوشي؟

- إيه مش عارف اسمك؟

تحوّلت نظراته إلى الحدة الشديدة وتلاشت ابتسامتُه:

- إيه علاقتك بعزيز؟

- مين معاك تاني في المنظمة؟

- فين أجهزة التجسس اللي معاك؟

- قتلت عزيز ليه؟

- إيه كشفك؟ ولا هو معاك في المنظمة وجالك أوامر تصفيه؟

كان وَقْعُ تلك الكلمات على مسامعِه أقوى من الصَّفعاتِ التي تلقاها من ذلك الأمين ذي اليدِ اليابسة.. لم يَجِد ما يُجيبُ به إلا الصمت المُطبِق.. أُلجِمَ لِسانُه تمامًا، وانتحرتْ كلماتُه فلم يجد وسيلة ليجيب بها على تلك الاتهامات الخطيرة .. صَرَخَ فيه العميدُ إبراهيم:

- إنت هتستعبط يالا.. انطق بتعمل إيه في بربونيا يا فاروق يا مرجوشي؟

اغرورقت عينا المرجوشي بالدموع:

- أنا مش فاكر أي حاجة.. مش فاكر أي حاجة.

نَهَضَ العميد حينها وجلَس بالكرسي الذي أمامه واقترب منه مُهدّدًا له:

- إنت فاكر إن مصر هتحميك؟

- والله مقتلتوش .. والله ما فاكر أي حاجة.

صَرَخَ به بصوتٍ عالٍ اهتزَّتْ له الجدران:

- مش فاكر؟ آه .. مصري وممسوك في جريمة قتل.. وفين.. في بربونيا.. أكبر دولة معادية لبلدك.. ومش فاكر.. مش فاكر.. المفروض إني أصدق بقه الكلام ده.. ممدوووووووووووووووووووووووووح

نادى بأعلى صوته والشَّرَرُ يتطاير من عينيه .. أدركَ حينها المرجوشي أنه مُقبِلٌ على ما هو أسوأ.

انخرطَ فاروق ببكائه.. وكأنه بغيبوبةٍ من البكاء المُتواصل.. لم يشعر بكَمِّ العذابِ المُنصبِّ عليه منهم.. علَّقوه من قدميه بعدما حلقوا له شعر رأسَه كاملًا .. نزعوا شَعْرَ صدرِه بالواحدة .. دهنوا فروة رأسه بالصَّمغ .. تفنّنوا بتعذيبِه.. ضربوه بالسياط الغليظة



.. صَعقوه بصاعِقِهم الوحشي..

كان يرتجف بشدةٍ.. يصرُخُ بكلِّ ما لديه من قوةٍ .. يندُبُ حظَّه العاثِر .. فَقَدَ كُلَّ شيءٍ.. ذاته .. كرامته.. أدميته .. فَقَدَ صديقه العزيز.. ومُتهم بتلك الجريمة البشعة .. وليس ذلك فقط بل ومتهم بالجاسوسية.. تلك المُصيبة التي لم يضعها في حُسبانه مُطلقًا.. ما هذا الحظُّ العاثر الذي ألقى به في هذه الدولة المعادية؟! يُدرِكُ أن حُكم الإعدام ينتظرُه لا محالة .. صرخَ رافضًا لكُلِّ شيءٍ.. الآن أدركَ اسمَه ووطنَه ولكن بعد فوات الأوان .. سَبَقَ السيف العزل.. بعد هذه الجريمة البشعة.. ولكن السؤال الأهم الآن .. مَن قَتَلَ عزيز؟ وكيف تمَّ ذَبحُه وهو نائم بجواره، هكذا دون أن يشعر؟ كان الجميع يعلم أن سمعة الأعور هو من قتله.. الهِرة المذبوحة تُشير إليه بوضوح .. وعلى الرَّغم من ذلك لم ينطق أحد ولا حتى المرجوشي يُدرِكُ هذه الإشارة الإجرامية منه .. لم يخبره عزيز عنها

كان يعرف جيدًا أن إجابة ذلك السؤال لن تُنقذه من مصيره المَحتوم .. لكن حبَّه للشخص الوحيد الذي وَقَفَ بجواره يدفعه لمعرفة الإجابة لعله ينتقم له يومًا ما .. وسط كل ذلك العذاب أصرَّ المرجوشي على تقصي الحقيقة كاملة مهما يكلفه ذلك .. صمم على الوصول إلى إجابةٍ شافيةٍ.. مَن الفاعل الأصلي لتلك الجريمة؟ الجريمة التي هزَّت بربونيا بأكملها .. جريمة مملكة السَمك.



زنزانة 66

جَلَس المرجوشي مُنزويًا في أحد الأركان المُهمَلة بتلك الزنزانة المُعتِمة .. بذلك السجن الاحتياطي الذي انتقلَ إليه بعد حُصوله على وجبته الدّسمة من التعذيب المريع.. انتقل في حراسةٍ مُشدَّدةٍ مُكبَلًا بالقيود وكأنه أخطر مجرمٍ على وجه الأرض.. ألقوه في تلك الزنزانة الضَّيقة وسط مجموعة من معتادي الإجرام.. زنزانة تحمل رقم 66.لم يتخيَّلْ يومًا أن يمرّ بهذه التجربة مُطلقًا.. لم يخطر بباله أن ينتهي به الأمرُ بتلك الزنزانة مسجونًا يترقّب حُكمَ الإعدام بأيّ لحظةٍ..

عكفوا على تعذيبِه يوميًا.. كان نزيلًا دائمًا بغرفة التعذيب لأكثر من ساعتين يوميًا.. زادوا في تعذيبه رغبةً في انتزاع اعترافِه، لكنهم لم يفهموا أبدًا أنه لا يملك ما يعترف به..

تألَّم المرجوشي مِرارًا وتكرارًا.. كان يصرُخُ بكُلِّ ما لديه من قُوّةٍ في كل مرةٍ يزور فيها تلك الغرفة الشّنيعة الخاصة بعذابه اليومي دون أن يُصدِّقه أحدٌ.. تلك هي الحياة.. قد تصرُخُ بالحقيقة ولا أحد يبالي.. يريدون سماع ما يرغبونه فقط.. وما دون ذلك فلا.. توَرّم جسدُه كاملًا.. غرفة لا تُنسى مُطلقًا .. كُل من دخلها حُفِرَت بذاكرتِه كالنقش على الحجر.. غرفة واسعة حوائطها سوداء بها مصباح واحد أصفر اللّون معلقٌ بالأعلى .. يُقيّدونه على قطعة خشبية كبيرة بالمنتصف.. ويبدؤون بممارسة هوايتهم بكل ألوان التعذيب وكأنهم يأكلون أشهى المأكولات وكأنه شيء اعتيادي يفرحون بشدة عند القيام به.. انخرطوا بتعذيب أكثر من سجين في ذات الوقت .. كان هناك رجلٌ في الخمسينيات من عُمره يُقيّدونه دائمًا بجوار المرجوشي.. وعلى الرغم من تعالي صرخات فاروق كان الرجل يحافظ على ابتسامته الواسعة .. ابتسامته تلك تُحيّرك وسط هذا العذاب الشديد.. لفتت انتباه المرجوشي، ولكنه لم يقوَ على سؤاله وسط ضربات السياط الغليظة على جسديهما..

أسندَ رأسَه إلى حائط زنزانته مُستسلمًا لمصيرِه المحتوم .. زنزانته الضّيقة ذات الحوائط السوداء اللون دون أيّ مصدرٍ للإضاءة إلا شباك صغير أعلى الزنزانة يتسلَّلُ من خلالِه ضوءٌ خافِتٌ .. يبدو أنه ضوء القمر يدخل على استحياء.. وكأنه قبرٌ مُظلمٌ أُلقي به بَغتةً.

اقتربَ منه توفيق أحد نزلاء تلك الزنزانة .. رجل نحيف في الأربعينيات من عُمره .. لا تجد في رأسه شعرةً واحدةً .. تبدو عليه الطّيبة، ومن العجيب أن تراهُ داخل ذلك المكان اللّعين. جلس بجواره.. ربت على كتفه مُهوّنًا عليه:

- إيه يا زُمل .. مترَوق كده.. متبقاش خِرِع.



لم يستطع المرجوشي حتى أن ينظر إليه ليُجيبه..

- يا أخى ما تقولهم على الحقيقة وخلص نفسك دول عالم مؤذية مش هيسيبوك إلا أما يعرفوا اللي هم عاوزينه.

نَظَرَ له حينها نظرةً يائسةً وامتلأت عيناه بالدُموع المُختنِقة:

- لالالالا.. صلي على النبي كده.. خد بالك السكوت ده هيضرك.. قولي إنت جاي في أيه؟يا جدع ما تتكلم بقه.. الله.. إنت فاكرني بوليس بقه ومتخفي وكده وبقررك.. هه.. بتتفرج كتير إنت على الأفلام العربي.. على العموم أنا توفيق.. وإنت؟

ابتسمَ له توفيق مادًا يدَه.. أسندَ فاروق رأسَه إلى الخلف دون أن يتلقى سلامَه مُتنهِّدًا:

- مش عارف.

- الله .. هم وضبوك قوي كده.. معلش بكره هتتعود .. قوم قوم.. تعالى أعرفك على بقية النزلا

- نزلا إيه؟

- الزباين.. زباين زنزانة 66 .. تعالى بس.

نَهَضَ توفيق جاذبًا له من يده رغمًا عنه.. كان يدفعُه دفعًا .. بينما استسلم له المرجوشي تمامًا.. اقتربَ به من أحدِ أركان الزنزانة .. هناك جلس أربعة مساجين كان الظلام يُخفيهم.. ضحكاتهم كانت تتردَد من حين لآخر.. جلس بجوارهم توفيق وأجلسَ فاروق:

- يا خوانا.. أعرفكم على الزبون الجديد.. ده متولي.. حرامي غسيل ..

أشار توفيق إلى أحدِهم .. كان مَقطوعَ اليدين .. يبلغ من العمر أربعين عامًا..

هزَّ رأسَه مُحييًا المرجوشي:

- أهلًا وسهلًا.

استكملَ توفيق التعريف به:

- قطعوله إيده الشمال عشان يبطل سرقة .. مبطلش.. قاموا قاطعين اليمين.. مبطلش برضه..

- إزاي؟

سأله فاروق مُستغربًا:

- كان بيسرق ببوقه.. يمسك المقص ويقطع ويا فكيك.. معرفوش يقطعوله بوقه قاموا راميينه هنا.. وده عبده النتن الشهير بعبده القماش.



أشارَ إلى رجلٍ آخر بجوارِه مُبتسم يُحيي للمرجوشي .. أعور العين اليُمنى، أشار المرجوشي إلى عينيه وكأنه يسأله:

- أه الحكومة اللي خزقتهاله .. أصل القماش ده أحسن واحد يفتحلك أجدعها خزنة ..

- وخزقوهاله عشان كده؟

- لا ده كان كاتب شيكات مضروبة مقدرش يسددها قاموا خدوا عينه مكانها.. وده سمير .. المثقف بتاعنا

شابٌ في الثلاثينيات من عُمره .. مُهندم الشكل.. أشار إلى لمرجوشي مُحييًا إيّاه بكلامٍ غير مفهوم .. فهم من الوهلة الأولى أنه أخرس..

- كان صحفي قد الدنيا.. قطعوله لسانه يا عيني .. ومحدش عارف السبب وهو مش عاوز يقول ..

- قطعوله لسانه؟

سأل المرجوشي مُندهشًا:

- إنت مالك مستغرب ليه كده؟

- إيه حكومة الأعضاء دي؟

- حكومة وسخة بقه نقول إيه.. وده بقه كبيرنا هنا الملعم ناجي.

كان المعلم ناجي رجلًا ذا هيبةٍ .. أبيض الشعر تمامًا.. يبلغ من العمر ستين عامًا.. بشوش الوجه.. لديه قَطعٌ رأسيٌ بالأنف جذبَ نظرَ المرجوشي بمجرد أن نَظَرَ لوجهه.

ابتسمَ له ناجي مُرحّبًا به:

- أهلًا بيك وسطنا يااا!.. هو أنت اسمك إيه؟

- معلش يا معلم أصل الضرب مأثر عليه قوي.

جاوبه توفيق بدلًا عنه بينما شَرَدَ المرجوشي تمامًا ناظرًا لأنف المعلم ناجي وكأنه يُريد أن يسأله عنها مُندهشًا من تلك الأحكام الغريبة بالقطع وخزق العيون .. شَرَدَ فيما سيقطعونه له في حالته تلك .. ربما سيقطعون رقبته..

ابتسم المعلم ناجي ساخرًا:

- إيه يا أخينا.. جرى إيه؟ أول مرة تشوف واحد مناخيره مقطوعة .. مالك مبحلق كده ليه؟

استكمل توفيق التعريف بهم مُتداركًا الموقف:

- المعلم ناجي بقه له صولات وجولات في عالم الإجرام.

- ومناخيري دي بقه الحكومة هي اللي قطعهالي.



أشار المعلم ناجي إلى أنفه مُحدّثا المرجوشي.

سأله المرجوشي بحذر:

- ليه يا معلم؟

- ولا حاجة يا سيدي .. أصل اللي مناخيره كبيرة هنا لازم يدفع عليها ضرايب.. واللي ميدفعش يقوموا قاطعينهاله .. شوف يا أخي الافترا بتاع الناس.

أمسك المرجوشي أنفه بتلقائية فضحكوا جميعًا.

- متخافش كده مناخيرك لسه صغيرة .. لما تكبر هيقطعوهالك.

ابتسم المرجوشي مجاريًا ضحكاتهم .. نظر إلى توفيق وسأله بجديّة:

- وأنت يا توفيق قطعولك إيه؟

انفجروا جميعًا في الضحك:

- مقطعوليش حاجة يا عم.

سأله المعلم ناجي وهو يُغالِبُ ضحكته:

- أوعى يكونوا قطعولك حاجة؟

- لا يا معلم.

- قطعولك حاجة؟

- لا والله.

انفجروا ضاحكين بهيستريا .. بدأ فاروق بمشاركتِهم الضحك.. حاول أن يندمج معهم مُتناسيًا أوجاعَه وآلامه .. لكن شيئًا عجيبًا حَدَثَ له فجأة.. نَظَرَ حوله في الزنزانة فوجدها مُمتلئةً بهولاء الأشخاص قِصار القامة.. عِراض الجباه .. من كانوا يطاردونه مسبقًا داخل رأسِه .. نظروا له شزرًا وانخرطوا في وصلة ضحكٍ مُرعبةٍ .. انكمش على آثرها فاروق في أحد الأركان صارخًا برعب شديد.. لم يلحظ اختفاءهم إلا والمعلم ناجي يضربه بكفِّ يدِه لإفاقتِه:

- إنت يبني.. بسم الله الرحمن الرحيم.. مالك .. فوق .. فوق.

سأله توفيق مُنشغلًا عليه:

- إيه يا زُمل مالك بتصرخ كده ليه؟

نَظَرَ لهم بعدما لاحظ اختفاء هؤلاء الأشخاص المُثيرين لرُعبِه الدائم ..

- لا مفيش حاجة أنا عاوز أرتاح بس.

- خده يا توفيق نيمه في الركن اللي هناك ده.

اصطحبه توفيق إلى ذلك الركن ونامَ بجوارِه .. مرّت أكثر من ساعتين وفاروق يحكي



له قِصَّته منذ أن عثرَ عليه عزيز مُلقى على شاطئ البحر إلى لحظتِه تلك. تنهَّد فاروق وهو نائمٌ بجوارِه ناظرًا إلى السقف وكأنها نميمة قبل النوم:

- على فكرة يا فاروق.. مش فاروق برضه؟

- أيوه .. فاروق طلعت المرجوشي..

- مصر دي أهلها طيبين زي أهلنا بالضبط.. إنما بقه الملك بتاعنا منه لله قطع معاهم كل العلاقات من ساعة المعاهدة إياها..

- معاهدة إيه؟

- مش عارف الصراحة .. أهي الناس بتتكلم وتقول .. معاهدة باين مع الصهاينة .. محدش يعرف عنها حاجة.. ولا حتى إذا كانت موجودة ولا لا .. عارف الواد سمير ده كان بيكتب مقالات عن الحوار ده في الجورنال .. ووقتها الملك أعلن إن مصر دولة مُعادية .. وكالعادة الناس سكتت.. أصل الناس هنا مسالمين وطيبين.

- أه إنت هتقولي؟ مجرب بنفسي أنا.

- بس سمير بقه مبيرضاش يقول حاجة عن الحكايه دي خالص.

- يقول إزاي .. مش أخرس؟

- أيوه صحيح.. مخدناش بالنا من الحكاية دي.

ضحكا معًا سأله بعدها المرجوشي:

- إنما أنت مقولتليش إنت هنا ليه؟

تنهَّد توفيق ناظرًا إلى السَّقف:

- أنا فتحت عيني على الدنيا لقيت نفسي وحيد لا أب ولا أم .. موعاش عليهم .. وطبعًا بقيت متطلطم في الشوارع .. لا أهل ولا بيت .. دخلت الأحداث وهناك أتعلمت كل حاجة زبالة ممكن تتخيلها ومع ذلك لما خرجت حاولت أشتغل وأبقى نضيف.. اشتغلت فترة ممرض في مستشفى ولادة .. كنت بسهر بالليل في أوضه العيال اللي لسه مولودة أخد بالي منهم.. بس أول ما اكتشفوا إني خريج الأحداث .. طردونى .. تقولش هاكلهم.. ومن شغلانة لشغلانة وفي كل مرة أتطرد زي الكلب أكني جربة أو مرض.. ده حتى التربي اللي روحت أشتغلت معاه صبي طردني.

ضحك فاروق ساخرًا منه:

- تربي؟

- أه تربي مهو متفرقش كتير من ممرض لتربي في البلد دي ..

- أيوه يعني مسكوك ليه؟

- تجارة في الممنوع..



- مخدرات

- لا

- أمال إيه؟

نَهَض توفيق وجلَس القُرفصاء بجواره:

- وادي قعدة.. بقولك إيه سيبك مني أنا .. خلينا في مصيبتك اللي إنت حكيتهولى ده لو ثبتوه عليك.. هتروح في ستين داهيه.. إنت لازم تفتكر.. لازم تعرف أهلك فين وتبعتلهم.. يطلبوا من بلدك تتدخل.. الدول مع بعضيها بيعرفوا يسلكوا.. إياكش يعملولك تبادل أسرى مثلًا.. وخليك مصر على الإنكار .. دي جاسوسية يا ابه مش لعب عيال يعني إعدام بالمستريح.. إنت إيه اللي رماك هنا بس يا أخي؟

سيطرت الحيرةُ على المرجوشي كعادتِه.. أصبحت عودةُ ذاكرته مرةً أخرى ضرورةً مُلحّةً .. إمّا أن يسترجعها وإمّا أن تنتهي حياتُه هكذا مَنسيًا شريدًا مُنزويًا في تلك الزنزانة المُظلمة.. مرّت أيامُه وراء بعضها البعض كالعِقد المنفرط.. أصبح أكثر هدوءًا .. اعتادَ التعذيب وكأن جلده أصبح أكثر سُمكًا ليتحمل سياطِهم الغليظة.. استفزّه ذلك الرجل المُحافظ على ابتسامتِه دائمًا بينما كان يسقط هو في بئر من اليأس وانقطاع الأمل اللانهائي..

سأل توفيق ذات ليلةٍ عنه وعن ابتسامتِه تلك التي حيّرته كثيرًا ورغب بمعرفة ما وراءها، فأجابه توفيق:

- ده أستاذ منذر .. سياسي كبير .. كان عضو في البرلمان الملكي وليه كتب كتير كمان راجل عقله كان بيوزن بلد بحالها.. بس متعرفش بقه حصله إيه وفي يوم وليلة بقه بيهاجم الملك وحاشيته وبشتمه في كل مكان وطبقا جابوه على هنا بتهمة إهانة الملك تقريبًا..

- طب وليه على طول مبتسم كده؟

- أنا عارف! أهو ربط على كده من ساعتها وساكت على طول محدش بيسمعله صوت.

كان منذر من رجال السُلطة المُخضرمين سابقًا.. كافحَ كثيرًا طوال عُمره السياسي لأكثر من ثلاثين عامًا ضد الفساد والظلم .. ولا يدري أحدٌ ما السبب الحقيقي وراء سجنه .. اعتقدَ الكثيرون أنه قد مسّه الجنون .. ولم يدافع هو عن نفسه مُطلقًا واكتفى بلك الابتسامة المُستفزّة في بعض الأحيان .

نَسِيَ المرجوشي إحساس الدفء النابع من تلامُس أشعة الشمس على جلدِه .. كان يقفُ كثيرًا تحت شباك زنزانته ناظرًا إلى أعلى مُحاولًا أن يرى ضوء الشمس مُتنفسًا لذلك الهواء النقي المنتشر خارج زنزانته اللَعينة .. كرهها بشدة .. تلك الزنزانة التي دُفنت بها كُلُّ آماله في العودة إلى حياتِه السابقة رغمًا عنه .. لوّنت حياته بلون جدرانها



السوداء.. تلك الزنزانة اللعينة..

زنزانة 66



كَهْف سمير

وَقَفَت عربةُ الترحيلات الكبيرة على عجلاتها الثلاث الضخمة وكأنها (توكتوك) تعرَّضت لإشعاعات قادمة من الفضاء فأصبحت عملاقة أمام ذلك السجن الاحتياطي الأشبه بالمقبرة الجماعية التي تتعالى منها صرخاتُ المُعذَّبين ليلَ نهار..

خرج المرجوشي بصُحبة بعض المسجونين أبرزهم المعلم ناجي وتوفيق وسمير ذلك المُثقَّف الأبكم في حراسة مشددة .. ألْقُوا جميعًا بعنف شديد بمؤخرة تلك العربة وأُغْلِق عليهم البابُ الحديديُّ بأحد الأقفال الصلبة، وجلس أربعةُ جنود أمام ذلك الباب الخلفي بكامل أسلحتهم.. اختلس المرجوشي النظر إلى السماء المُنعكس بها أشعة الشمس المختبئة وراء السُّحب المتراكمة.. استنشقَ الهواء النقيَّ وكأن روحه قد رُدَّتْ إليه للتَّوِّ..

تحرَّكت العربة في طريقِها الوعر وسط الجبال لتلحق بميعاد التحقيق الأول للنيابة في تلك القضايا.. كانت النيابة هي المكان الوحيد بدولة بربونيا الذي لم يتسلَّلْ إليه الفساد مُطلقًا.. كثيرون أنصفتهم تحقيقاتُ النيابة في العديد من القضايا .. لكن في حالة المرجوشي تهمة الجاسوسية مُثبَتةٌ عليه تمامًا لا محالة.. بالإضافة إلى جريمة القتل مكتملة الأركان..

جَلَس الضابط ممدوح في الكرسي الأمامي وبجوارِه جنديان آخران بكامل أسلحتهما.. كان عليه تسليم المساجين إلى النيابة، وانتظار انتهاء التحقيقات ليعود بهم إلى السجن الاحتياطي مرةً أخرى.

هَمَس توفيق للمرجوشي الجالس بجوارِه شاردًا:

- في النيابة بقه يا معلم المعاملة مختلفة خالص.. أهم حاجة تصر على اللي إنت قولته ومتغيريش

حرف واحد منه.

لاحظ توفيق نظرات القلق على غير العادة تفترس وجه المعلم ناجي فسأله مُستفسرًا:

- مالك يا معلم؟ مش تمام إنت النهاردة.

تنهَّد المعلم ناجي .. لم يستطع إخفاء قلقه الشديد.

- لا أبدًا.. مفيش حاجة يا توفيق.. مفيش حاجة؟.

غاصَ المرجوشي في بَحْرٍ من الهموم والألغاز القاتِلة.. أصابه المَلَلُ والإحباط من ذلك الفشل المتوالي في كَشْف غُموض حياتِه السابقة.. بالإضافة إلى مُصيبتِه الجديدة التي لا إجابة لها.. وكأنه تحوَّل لعلامةِ استفهامٍ كبيرةٍ تحتاجُ لمُعجزةٍ للإجابة عنها.

مَضت العربةُ بطريقِها الوعر تتقاذفُها المطباتُ العاليةُ.. توقَّف سائقُ العربة فجأةً حين رأى فرع شجرة ضخمة بعرض الطريق وكأن شخصًا ما وضعها ليُعرقل الطريق.. وضعَ ممدوح يَدَهُ على سلاحِه بترقُّبٍ استعدادًا لأيِّ شيءٍ غير مُتوقَّعٍ.. تحرَّكت مجموعةُ جنودٍ لإزالة الشجرة عن الطريق لكن لم تمهلهم طلقاتُ الرصاص المُتلاحقة القادمة من جانبي الطريق لفعل أيِّ شيءٍ .. أردَتْهم جُثثًا هامدةً غارقين بدمائهم، ولم تُمهل الضابط ممدوح لاستخدام سلاحِه.. تلك الطلقات عرفت طريقها لتحصد كل مَن يرتدي زيًّا رسميًا تابعًا للدولة.. ظهر مجموعة من المُلثَّمين .. أتجهوا لخلفية العربة .. أطلقوا رصاصة واحدة على ذلك القفل الصلب لينفتح فاتحًا الباب الخلفي..

خرجَ المعلم ناجي والفرحُ يتطاير من عينيه .. نظر لباقي المساجين مُبتسمًا:

- يلا يا ولاد .. إهربوا.

قَفزَ الجميع من العربة وانطلقوا متفرقين .. ذابوا وسط تلك الصخرات المُتقاربة وسط الجبال الشاهقة.. وَقفَ المرجوشي ينظرُ لهؤلاء القتلى .. احتبست الدموعُ بعينيه .. رجع إليه توفيق وسمير .. وَقفَا بجواره بينما هربَ المعلم ناجي بأحد التكاتك مع أصدقائه المُلثمين واختفوا عن الأنظار.. جَذَبَ توفيق المرجوشي من ذِراعِه:

- إيه بقه.. واقف ليه؟ ما تيلا يا عم .. البوليس هنا سريع وهتلاقيه هنا في دقايق

- ذنبهم إيه دول عشان يموتوا؟

- واحنا ذنبنا إيه نتسجن ونتعذب ونتنفخ؟ يلا .. يلا يا أبو قلب رهيف

أشار إليهما سمير إلى أحد الممرات الجبلية .. سأله توفيق:

- بتقول إيه يا سمير؟

تحدَّث لهما بعبارات غير مفهومة مشيرًا إليهما أن يتبعاه، تعجَّب توفيق ولكنهما مضيا في طريقهما وراء سمير.

- والله ما أنا فاهم منك حاجة يا سمير. خلبينا وراك.. إحنا لازم نبعد عن هنا بسرعة.

اختفوا وراء تلك الممرات الضيقة المَحفورة وسط الجبال الشاهقة.. سمير في المُقدمة يقودُهما بين تلك الممرات والمدقَّات الجبلية وكأنه أحدُ المُرشدين السياحيين المُتمرسين .. أشار إليهما سمير بالصبر والتحمُّل.

استمرت رحلتُهم لأكثر من ساعتين .. تارة يمشون وتارة يجرون.. أنهكوا تمامًا في هذه الشمس الحارقة فوق رؤوسهم.. وكلما توقفوا أشار إليهما سمير مُصرًا على أن يتبعاه.. تصبَّب عَرَقُهم بغزارة فابتلت ملابسُهم السَّردينية تمامًا وكأنهم خرجوا للتَّوِ من رحلة غطسٍ في أعماق البحر البربوني.. وَقفَ المرجوشي ليلتقط أنفاسَه المُتعالية من شِدَّة التَّعبِ.. ربت توفيق على كتفيه:

- معلش يا فاروق استحمل شوية.. أما نشوف سمير واخدنا على فين؟



- مش قادر.

- معلش.

توقّف سمير فجأةً فرحًا.. نظرا أمامهما ليريا ساحة واسعة وسط الجبال.. وكأنها مَحميةٌ طبيعيةٌ .. جبال شاهقة من كل النواحي تتوسطها بحيرة كبيرة بالمُنتصف.. انقضوا عليها يشربون بشراهة.. كاد العطش يقتُلهم .. ارتووا من ذلك الماء العذب .. نظرا بعدها إلى سمير بإعجابٍ.. ولكن كيف استطاع سمير أن يعرف ذلك المكان وسط هذه الجبال .. وكزَهُ توفيق بذراعِه:

- يخربيتك يا واد يا سمير.. عرفت المكان ده إزاي؟

لم تكن تلك البحيرة فقط هي المفاجأة.. كان هناك كهف داخل أحد الجبال أشار إليهما عليه ليتبعاه إليه.. دخلا إلى الكهف .. وقف المرجوشي خارجه يجرجر قدميه قلقًا في الدخول.. لديه تجربة سيئة مُسبقًا مع الكهوف المُظلمة.. أضاء سمير بعض الشموع كانت بالداخل.. وبنظرةٍ سريعةٍ على الكهف .. إنه يُشبِهُ تلك البيوت المحفورة داخل الجبال.. بعض وسائل المعيشة البسيطة من مرتبةٍ للنوم وبعض الكراسي الخشبية وبعض أواني الطعام النُحاسية وقليل من الملابس السردينية المتناثرة بالإضافة لبعض القُبعات مختلفة الألوان .. نَظَرَ توفيق مَبهوزا بالمكان ..

- إنت طلعت جامد ياد يا سمير.. بس إزاي مسكوك وانت في المخبأ الجامد ده.

أشار إليه سمير بأنه كان بعيدًا داخل المدينة أثناء القبض عليه، جلسوا أمام الكهف ليستريحوا من عناء ذلك اليوم الدامي..

كان سمير شابًا يافعًا قويَ البِنيَة.. لا تتخيّلُ أبدًا حين تنظر له ذلك المصير اللّعين الذي آل إليه.. نشأ سمير في أسرةٍ مُتوسطة الحال .. والده كان يعمل بصيد الحيوانات المُفترسة برحلاتٍ تستغرق أكثر من شهر وسط الجبال الشاهقة .. رافقه سمير أحيانًا ببعض رحلاتِه وكان ذلك الكهف إحدى استراحاته التي يلجأ إليها للنوم أثناء تلك الرحلات.. ولذلك كان سمير على دِرايةٍ كافيةٍ بالطرق والمدقّات الجبلية ..

شقَّ طريقه في عالم الصحافة منذ تخرُجِه في كلية الإعلام.. كان مُميزًا وسط كل أقرانه وزملائه.. حتى عُيِّنَ بقسم الحوادث بجريدة بربونيا.. حسدَه الكثيرون على وظيفتِه الجديدة.. ذاعَ اسمُه في كثير من التحقيقات والجرائم.. إلى أن وَعَدَ بكشف قضية فساد كبرى متورط بها كِبار مسؤولي الدولة.. اختفى بعدها شهرين إلى أن قُبِضَ عليه بتُهمة قتلٍ بغرض السّرقة وأثبت وقتها في محاضر النيابة أنهم وجدوه مقطوع اللّسان، وأخرس لا يقوى على الكلام.. كان ذلك مُزامِنًا لقطع العلاقات مع دولة مصر بعد تلك الإشاعات المُنتشرة عن اتفاقية أبرمها ملك بربونيا مع رئيس وزراء إسرائيل تُدعى (اتفاقية إيشلا).. ورغم أن الجهات السيادية ببربونيا أنكرت ذلك فإن أهالي بربونيا لم يقووا كالعادة على الاستفسار أو حتى معرفة الحقيقة وصدقوا تلك القصة المنسوجة

حول سمير واتهامه بالقتل والسرقة .. كان هاربًا في ذلك الكهف البعيد طوال هذه المدة بعد أن مزّق رئيسه بالعمل مقالته التي كشفَ بها جوانب تلك الاتفاقية المشؤومة .. هربَ بعد تلقيه اتصالات تهديدية متعددة .. لم يجد مَفرًا من الهُروب في ذلك الكهف.. ولم يتم القبضُ عليه إلا حينما جازف بذهابه للاطمئنان على والدته المريضة التي ماتت بعد القبض عليه أمام عينيها بأقل من أسبوع حسرة عليه لتلحق بوالده رحمة الله عليه.

تنهَّد المرجوشي أمام شُعلة النيران قُبالة الكهف ناظرًا للقمر بالسماء مُتذكرًا عزيز شريف.. صديقه المقتول غدرًا.. تذكرَ تلك الليالي التي سهراها معًا أمام كوخه الصغير.. كم يشتاق لرؤيته! لا ينسى آخر مرة رآه فيها مذبوحًا ودمُه يُغرقُه.. كان يعلم أن ذلك المجرم سمعة الأعور له علاقة بمقتلِه.. أخبرَه المعلم ناجي بذلك إحدى المرات حينما حكى له عن تلك الهِرَّة المذبوحة بجوار جثة صديقه ..

- مفيش غيره سمعة الأعور طالما قطة مدبوحة يبقى هو.

تذكرَ تلك الكلمات من المعلم ناجي وربطها بمشاهدته له يراقبهما صباح اليوم السابق لقتل عزيز بالإضافة لقتل عم أحمد وحرق المخزن .. نَظر له توفيق ليقطعَ شُروده:

- إنت لازم ترجع مصر يا فاروق.

نَظر له المرجوشي والدموع بعينيه .. سأله بفضولٍ:

- إنت مقولتليش إنت مسجون في إيه؟

- قولتلك تجارة في الممنوع.

- ممنوع إيه بقه؟

تنهَّد توفيق قبل أن ينطق بها.

- بربون..

- نعم؟

- بربوووووون.. تهريب واتجار بالبربون.

- بربون ده اللي هو السَمك؟

- إيوه تهريب سمك البربون.

انخرط المرجوشي في وصلة ضحكٍ مُتواصلةٍ:

- اضحك اضحك.

- مش قادر بصراحة.

- يا سيدي قانون بربونيا بيمنع التجارة في البربون والحكومة بس هي اللي ليها الحق في كده.



- ليه هو سلاح؟ ولا مخدرات؟

- هو القانون كده..

كانت نظرات الدهشةِ تُسيطر على وجه المرجوشي:

- إيه البلد العجيبه دي؟

- منتهى الظلم مش كده؟

سادت لحظاتُ الصمت بينهما قبل أن ينطق توفيق مُتحمسًا:

- اسمع أأأأنننا هساعدك ترجع مصر.

- إزاي بس؟

- طول مانت هنا إنت في خطر. ارجع وهناك وسط بلدك هتعرف تلاقي أهلك وربنا يكرمك.

- أيوه إزاي هرجع؟

- فيه واحد قريبي ممكن يهربك دكاكيني. كده .. بس سعره حراق شوية.

ابتسمَ المرجوشي يائسًا:

- أنا معييش أي فلوس.

ربت توفيق على كتفيه حينها:

- متحملش هم .. أنا هساعدك تعمل فلوس حلوة.

- إزاي؟

- يا جدع بطل أسئلة.

بكره الصبح يحلها الكريم .. متشيلش هم يا صاحبي.

كانت الأصوات المتتابعة الصادرة من أنف سمير النائم تتعالى لتصل إليهم بالخارج .. اعتادا سماعها بالزنزانة .. لكنهما ضحكا هذه المرة من قلبهما وكأنهما يتحيَّنان الفُرصة للضحك لأي سبب.. استنشقا الهواء بقوة.. تنفسا كما لم يتنفسا من قبل .. إنها الحرية المفقودة التي عرف المرجوشي قيمتها بعد فِقدانها رغمًا عنه .. الحرية الضائعة التي حصلا عليها الآن أمام ذلك الكهف الحميمي .. كالجنة وسط صحراء قاحلة .. كهف سمير.



فِي البَحْرِ سَمَكَة

وَقَفَ المرجوشي حائرًا على مركب صيد صغيرة تتلاطمُها الأمواج بعرض البحر.. على الرغم من الخطر المُحدِق بهم في هذه الساعة المتأخرة من الليل .. فقد أصرَّ توفيق على خُروجهم هذه الليلة دون أن يُبدي لهما أسباب ذلك.. غرقوا بهذا الظلام المنتشر في كل الأرجاء بعدما اختفى القمر كعادته وراء تلك الغيوم المُتراكمة ..

كاد الهواء الشديد يُطيحُ بهم وسط المياه لكنهم تماسكوا بقوة.. وَقَفَ توفيق بمُقدمة المركب يراقب شيئًا ما في ذلك الظلام الدامس.. سأله المرجوشي حائرًا:

- أنا مش فاهم حاجة..

- أصبر على رِزقك.

نَظَرَ حينها توفيق لسمير الواقف بمنتصف المركب .. وبصيغه آمرة:

- نور النور يا سمير.

أسرعَ سمير بعدها حذرًا وأضاء المِصباح الأمامي المُعلّق بمقدمة المركب .. حينها ظَهَرَ ضوءٌ مماثل عن بُعدٍ يقتربُ منهم .. هَمَسَ لهما توفيق فَرِحًا:

- أهم جم؟

- هم مين؟

سأله المرجوشي:

لم يُجِبهُ توفيق.. انشغلَ بمتابعةِ ذلك المركب الكبير المُقترب منهم.. الممتلئ بمجموعة من الملثمين.. يظهر وسطهم وبوضوح الآن المعلم ناجي وبابتسامةٍ عريضة حادَثهم:

- إزيكم يا ولاد؟

تعجّب المرجوشي كثيرًا.

- المعلم ناجي؟

- هاه لسه مش فاكر حاجة برضه؟

- لسه يا معلم.

أجابه المرجوشي:

- بركة إني اطمنت عليكو. يلا يا رجالة ..

أشار إلى رجالِه الملثمين .. سارعوا بنقل ثمانية صناديق خشبية متوسطة الحجم من مركبِهم إلى المركب الأخرى الصغيرة.. ناولوا سمير إيّاها وتوفيق ليرصوها بمَرْكِبِهم ..



ابتسمَ لهم المعلم ناجي قبل أن ينصرف بعيدًا ويختفي سريعًا:

- لولا غلاوتكم عندي مكنتش إديتكم بضاعة آجل أبدًا.

- يدوم العز يا معلم.

قالها توفيق محييًا إياهُ لحظة انصرافِه.

- طريق السلامه يا معلم

تهلّلت أسارير توفيق وتحرّك بالمركب في طريقِه للعودة وسط تساؤلات المرجوشي:

- مش هتقولى هو إيه اللي بيحصل؟ وبضاعة إيه دى اللى بالآجل؟

- منا قولتلك اصبر على رزقك.

نَظرَ فاروق لتلك الصناديق المُغلقة.. هل آلَ به الأمر في النهاية لتاجر مخدرات ؟ أو تاجر سلاح.. هل تنتهى رحلته اللعينة تلك كمجرم مُطارَد من السُلطات؟ ألم يكفِه تُهمةُ القتلِ والجاسوسية حتى يضيف إليها هذه التهمة الجديدة.. سُحقًا لهذه الدائرة المُفرغة التي دخلها رغمًا عنه ولا يدري هل سيخرج منها أم لا؟

استكمل توفيق صياغة ألغازه الليلية .. مرة بعرض البحر.. والآن وسط كُثبانِ الرمال الصفراء.. وسط الصحراء..

وَقَفَ الثلاثة بجوار التوكتوك المسروق.. سرقه سمير من أمام أحد المنازل وحملوا به صناديقهم قبل أن يتجهوا إلى تلك المنطقة الصحراوية المقطوعة .. استغلوا مصباحي التوكتوك الصغيرين لإزاحة هذه الظلمة الكالحة حولهم .. لم تمضِ دقائق إلا وظهر ثلاثة تكاتك أخرى اقتربت بعد أن أعطتهم الاشارة المُتفق عليها: فَتح وغَلق مصابيحِهم ثلاث مرات مُتتالية.. نظر لهم توفيق بتحفُّز أثناء اقترابهم هامسًا لسمير.

- الإشارة.. اجهز يا سمير.

وَقَفَ الثلاثة بمواجهة توفيق ورفاقه .. مَن يُتابع المشهد عن بُعدٍ يقفز في ذهنه تلك المشاهدُ الشهيرة بالأفلام لعصابات الاتجار بالمُخدرات أثناء تسليم البضاعة بالمناطق الصحراوية البعيدة عن الانظار .. تلاقت أعينُهم بحذرٍ شديد .. نَطَقَ الثلاثة بآنٍ واحدٍ بعد لحظاتٍ من الصمت المُطبِق

- هاه كله تمام؟

أجابهم توفيق مُتسائلًا بحذر:

- كلمة السّر؟

نظر بعضُهم إلى بعضٍ.. وسريعًا تلاحقوا في الإجابة:

- في البحر سمكة.

أجابهم توفيق وكأنه ينتظر تكملةَ كلمة السّرّ:



- سمكة.

- بتجر سمكة.

- سمكة.

- على الشط واقف.

- واقف.

- صياد بشبكة.

- شبكة.

ابتسم بعدها توفيق فرِحًا وصافَحَ الثلاثة:

- يا مرحب يا مرحب بالرجالة ..

سأله أحدُهم:

- البضاعة جاهزة؟

بادَلَه توفيق بالسؤال:

- الفلوس جاهزة؟

أخرج الثلاثة ثلاث حقائب سوداء اللّون من تكاتكهم .. بينما أسرع سمير بفتح ثلاثة صناديق.. جحظت عينا المرجوشي حين رأى هذه الأموال المُتراصّة بهذه الحقائب، لكنه لم يقوَ على كِتمان ضحكته حين رأى ما تحويه تلك الصناديق..

صناديق مليئة بالثلج يتخلّله سمك البربون .. نوبة من الضحك الهيستيري .. حاول توفيق تدارُكَ الأمر:

- معلش يا رجالة .. أصله مبسوط شوية. اتكلوا إنتوا على الله .. طريق السلامة.

انصرفوا بعيدًا وغابوا عن أنظارِهم .. وَقَعَ بعدها المرجوشي أرضًا من شدّةِ الضَحك:

- خلاص يا عم فاروق .. يا عم خلاص .. الله

انخرطَ بعدها توفيق وسمير معه بالضحك الهستيري، وكأن ضحكاته تمتلك تلك القوة المُعدِية تنتقل بينهما بسرعةٍ خاطفة..

***

وَقَفَ الثلاثةُ بناصيةِ إحدى الأسواق ظهيرة اليوم التالي.. نظر بعضُهم إلى بعضٍ بحذرٍ شديدٍ .. ارتدوا تلك القُبعات المُختلفة الألوان .. استغلوا محتويات ذلك الكهف ليساعدهم على التنكُر.. تعتقد من الوهلة الأولى أنهم موظفون بالدولة.. أمسك كلٌّ منهم حقيبةً سوداء كبيرة .. دخلوا السوق بحذرٍ شديد.. تعالت نداءات البائعات السّمينات عاليًا:



- جمبري .. جمبري.. جمبري.

- يلا البوري الطازة.. البوري الطازة .. البوري.

- بلطي .. بلطي.. بلطي.. بلطي.

- سردين .. سردين.. سردين.. سردين.

توقّفوا عند إحداهنّ .. نظروا إليها نظرة إعلان لحضورهم.. رأتهم فأشارت إليهم بعدما مَشَت أمامهم أن يتبعوها ..

- تعالوا ورايا

مشوا وراءها وهي تتأرجح على الطريق كإطار سيارة تريلا كبيرة.. ابتسم المرجوشي وهو ينظر لردفيها المتخبطين أثناء سيرها أمامهم.. أشار سمير إلى ردفيها وتفوّه بكلام غير مفهوم .. كتما حينها توفيق والمرجوشي ضحكاتهما.. دخلت بهم داخل أحد المخازن وسط السوق.. رائحة الأسماك تملأ المكان بذلك العَبَق المُحبَّب للمرجوشي..

كانت هناك سيدة سمينة أخرى في الستينيات من عُمرها جالسة وتُدخّن الأرجيلة بشراهة .. نظرت لهم تتفحّصهم بدقةٍ قبل أن تُلقي سؤالها:

- معاكم قد إيه؟

أجابها توفيق:

- عشرين كيلو.

سألته مرة أخرى بحذر:

- هم فين؟

أجابها المرجوشي هذه المرة مُحاوِلًا تصنُّع الإجرام بملامح وجهه وفي طريقةِ كلامِه:

- موجودين يا معلمة.

افتحوا الشنط يا رجالة.

فتحوا حقائبهم المليئة بسمك البربون وسط الثلج .. تفحّصته تلك السيدة السّمينة .. تفحّصت خياشيم الأسماك بدقة ..

- شغل على مية بيضة يا معلمة. طازة طازة يعني.

استمرّ المرجوشي في ارتداء ذلك الوجه الإجرامي. أخرجت السيدة رُزمة من الأموال .. تلقّفها توفيق وأخفاها بملابِسه السّردينية .. انصرفوا بعدما ألقوا عليها التحية:

- سلام يا معلمة ..

تكرّر ذلك المشهد كثيرًا.. العديد من الحقائب المليئة بالبربون يسلمونها لزبائنهم بالأسواق المُتعددة.. أغلب زبائنهم من النساء.. جمعوا مالًا وفيزًا.. تقاسموه بينهم



بالتساوي.. احتفظ كلّ منهم بنصيبه في جوالٍ كبيرٍ داخلَ الكهف..

ابتسم توفيق وهو ينظر للمرجوشي أثناء إحصائه لتلك الأموال داخل جواله الخاصّ ساخرًا:

- كفاياك عد يا فاروق بيه أظن كده باقيلك كام عملية وتكمل المبلغ.

- تفتكر الفلوس دي هتكفي؟

ضحك توفيق حينها:

- هو صحيح حراق .. بس أكيد هتكفي.

كانت السماءُ صافيةً هذه الليلة .. غابت عنها الغيومُ على غير العادة.. ربما لتُرسِلَ رسائل طمأنةٍ للمرجوشي، وكأنها تُخبِرُه بقُرب انتهاء مأساته .. بقُرب عودتِه إلى بلدِه مصر ليبدأ رحلةً جديدةً في البحث عن ذاته ..

اصطحبهما توفيق هذه الليلة لتلك الحانة المُنزوية أعلى الجبل.. كانت الحانة الوحيدة ببربونيا.. تم تصميمُها على شكل صَدَفةٍ كبيرة .. تلاعبت أنوارُها أمامها وكأنها تتراقَصُ على أنغام الموسيقى الصاخبة المُنبعثة من داخلها..

جلسوا جميعًا إلى إحدى المناضد الدائرية .. انبهرَ المرجوشي بتلك الراقصات رائعة الجمال الممشوقة القوام .. بَهرَهُ أجسادُهنّ الساحرة .. سَحرَهُ تمايُلُهنّ المُغري على أنغام الموسيقى.. تعجّب كثيرًا حينها .. نَظرَ لتوفيق مُتسائلًا:

- إيه ده؟ هو فيه ستات جسمهم كده في بربونيا.

ابتسم له توفيق مُنشغلًا بالفُرجة:

- لا يا معلم دول من بره بروبنيا.. منتدبين يعني لزوم الفرفشة والصهللة.

- منتدبين إزاي يعني؟

- منتدبين .. يعني كده زي لعيبة الكورة جايين بعقود احتراف.

كانت فساتينهنّ تتلألأ وسط الحانة .. سيقانهن العارية وصدورهن المكتنزة يسيل لها اللُّعاب بمجرد النظر إليهنّ.. كؤوس الخمر تتطاير فوق الرؤوس.. أكواب مليئة بالدخان .. يبدو أنه مُخدِّر الحشيش .. ينتقل بين المناضد بحُريّةٍ كبيرة .. استسلم المرجوشي لكؤوس الخمر وتلك الأكواب المخدرة .. ضحك كثيرًا سائلًا توفيق وهو يُجرجر لسانه الثقيل:

- يعني إنتم سامحين بالحشيش عادي كده ومانعين البروبون؟

- البربون عندنا سعره غالي قوي أغلى من الدهب .. سعر الكيلو يعدى ال 10000 جنيه.

- اشمعنى يعني؟



- والله يا معلم مانا عارف.. سألت السؤال ده كتير ملقيتش إجابة يمكن الممنوع مرغوب .. بالك.. تربة الحشيش دي ب 100 جنيه .. تلاقيها في كل حتة.. على الأرصفة عند البقالين.. ناقص تنزل في الصيدليات أو تاخد دعم زي رغيف العيش.

انفجرَ الثلاثةُ في وَصلة ضَحِكٍ هيستيرية .. جلست بجوار المرجوشي إحدى الفتيات المثيرت.. نَظَرَتْ في عينيه بشهوانية:

- مساء الفل يا قمر.

صَفَّق توفيق ضاحكًا:

- الله الله الله.. حلاوتك يا فاروق يا جامد.

قاربَ المرجوشي على فِقدان الوعي.. أصبحت الدنيا مِنْ حوله مجرد مجموعةٍ من الخيالات .. فوُجِئ بتلك الأغنية التي طالما أحبَّ سماعَها على شاطئ البحر كل صباح ..

- عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس

عندك بحرية .. يا ريس

سمر وشرقية .. يا ريس

والبحر كويس.. يا ريس

وصلني حبيبي.. يا ريس

لكنها امتزجت هذه المرة بالضحكات الخليعة .. وقرع الكؤوس.. تسمَّمت داخله تلك الذكرى الجميلة .. دمعت عيناه .. نظر لتوفيق بصعوبة:

- أنا عاوز أروح.

سانده توفيق وسمير للخروج من الحانة .. عادا إلى كهفهما البعيد.. انكبَّ فاروق ليغطّ في نوم عميق.. استعدادًا لجمع المزيد من الأموال .. اقتربت النهاية.. اقتربت العودة .. لعله سيقصُّ هذه المغامرة لأهله بمصر .. حتمًا سينفجرون بالضحك حينها .. حتمًا سيضحك كثيرًا حين يستمع إلى تلك الأغنية التي تحوَّلت إلى كلمة السِّرِّ في عمليات تهريب البربون.. سيضحك حين يُردِّدُها .. في البحر.. سمكة.



اتفاقية إيشلا

وَقَف المرجوشي بصُحبة توفيق وسمير وسط الكتل الصخرية ببؤرة إضاءة توكتوكهم المسروق.. وقفوا كالعادة في انتظار الدفعة الجديدة من سمك البربون.. ساد الصمتُ وطالَ انتظارُهم هذه المرة .. تسلَل الشَكُ لنفس المرجوشي.. نَظَرَ لتوفيق متسائلًا بقلق:

- إيه الحكاية؟ المعلم ناجي اتأخر كده ليه؟

- لا مهو الطلعة دي مش مع المعلم ناجي.

ده حد تاني بس أرخص منه.

- أرخص إزاي؟

- يعني هيدينا الكيلو ب 5000 جنيه. أرخص من المعلم ناجي ب 500 جنيه بحالهم ناس زباين وصفهولى .. مكنتش أعرفه.. اسمه المعلم إسماعيل سردينة.

- سردينة..

ضَحِكَ فاروق .. ظَهَرَ حينها توكتوك من الحجم الكبير.. يبدو ذلك من قُطر إضاءته المُقتربة.. اخترقَ الظلامُ المحيط بهما .. تهلّلت أسارير توفيق حين رآه يقتربُ

- أهو جه.

هَبَطَ من التوكتوك أربعةُ رجالٍ مُدجَجين بالأسلحة.. وكأنهم رِجالٌ من عصابات المافيا.. علامات الإجرام تقفز من وجوههم .. هبط بعدهم المعلم إسماعيل ذلك الرجل عتيد الإجرام.. وجهُه من النوع الذي لا يُنسى مُطلقًا.. جحظت عينا المرجوشي حين رآه .. تذكَره جيدًا.. حيَاه توفيق

- مساء الفل يا معلم إسماعيل.

رَمَقه إسماعيل بنظرته الحادة:

- هاه جاهز؟

- جاهزين يا معلم.

قالها توفيق مُشيرًا لسمير الممسك بحقيبة الأموال.. ناولَه إيَاها .. أعطى رجالَه إيَاهُ.. أحصوها بعد فتح الحقيبة.. أعطوا المعلم إسماعيل إشارة التمام .. وضعوها في توكتوكهم الكبير .. ترقَبوا إشارته لنقل الصناديق .. اقتربَ المرجوشي منه مُهدِدًا بحدة:

- إحنا متقابلناش قبل كده يا معلم؟

كان يحفظ وجهه ظهرًا عن قلبٍ.. طالما زاره في كوابيسه.. إنه المُتسبب في كل

مصائبه.. من دفعه إلى تلك الدائرة المُفرغة.. قاتل عزيز شريف.. إنه سمعة الأعور.. لم ينسَه هو الآخر .. أو بالأحرى لم ينسَ سمعة تفاصيل أيِّ جريمةٍ قام بها .. كان سمعة سردينة الأعور يتذكّر جيدًا ذلك الشخص النائم بجوار عزيز أثناء ذَبحه.. نَظَرَ له نظرة سُخريةٍ:

- هو إنت؟

مُواجهة عنيفة بينهما.. كادت عيونهما تتصارعان لفَقْءِ إحداهما للأخرى.. لم يَفْهَمْ توفيق وسمير ما يدور بينهما.. لم يفهما سبب لهذه النظرات العدائية.. تعجَّب توفيق مُتسائلًا:

- فيه إيه يا فاروق؟ هو فيه حاجة يا معلم؟

لم يمهلهما القَدَرُ الوقت لتفسير الموقف .. أُضيئت المنطقة بأكملها بكشافاتٍ ضخمة .. يبدو أن الشرطة تُحاصِرُ المكان بالكامل.. خرج صوتُ أحد الضباط ليُجلجِلَ بمُكبِّر الصوت:

- حطوا اللي في إيديكم على الأرض.. حطوا اللي في إيديكم على الأرض.. وإلا هنضرب نار.. وإلا هنضرب نار

بالطبع لم يستجِبْ رجالٌ مثل هؤلاء لذلك الإنذار المُعتاد.. في لحظات تحوَّلت الساحة إلى مباراة شرسة في إطلاق الرصاص المُتبادَل .. وفي أقلّ من ثانية وبسرعة خاطفة استقلَّ سمعة التوكتوك الصغير ليهرب به مُتفاديًا طلقات الرصاص.. حاول المرجوشي اللّحاق به .. لكنه كان أسرع .. نفذت أمام عينيه رصاصتان بصدر توفيق لتطرحاه أرضًا يُصارِعُ الموت غارقًا بدمائه.. جرى فاروق وسمير عليه ليجراه خلف أحدِ الصخور ليحتموا وراءها.. ابتسمَ توفيق وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة.

- اهرب يا صاحبى .. اهرب.

- لا مش هسيبك ..

قالها المرجوشي وهو يحتضنه.

تعالت أصواتُ طلقات الرصاص المُتبادَلة أكثر وأكثر.. همسَ توفيق له:

- أنا لو كنت مكانك .. كنت سيبتك وهربت، اهرب بقولك.

نَظَرَ إلى سمير الجالس بجوارِهما وعيناه ممتلئتان بالدموع.

- اهرب يا سمير..

صرخ بهما:

- يلا اهربوا .. اهربوووووووووا.

لَفَظَ أنفاسه الأخيرة .. تركاه على مَضَضٍ والحُزن يعتصرُ قلبيهما .. جريا وسط طلقات

الرصاص الكثيفة.. ارتادا ذلك التوكتوك الكبير.. انطلقا به سريعا.. تبعهما توكتوك شرطة بسارينته المميزة.. مهارة سمير ودرايته بالمدقات الجبلية كانت سببًا لهروبهما بنجاح.. هربا بالتوكتوك الكبير .. هربا بحقيبة الأموال وصناديق البربون .. الاثنان كانا من نصيبهما ..

كانت ليلة حالكة السواد.. بكى فيها المرجوشي كثيرًا لفراق توفيق.. وكأن الدنيا تصرُّ على سلبِه كل مَن يحبُّ بمنتهى القسوة.. نَظَرَ إلى حقيبة النقود بحسرة شديدة.. همس بصوتٍ مرتعش مُختنقًا أمام كهفهما:

- هعمل إيه بالفلوس دلوقتي.. هعمل إيه؟

نَظَرَ له سمير مربتًا على كتفه، انهارَ المرجوشي تمامًا:

- معرفش طريق قريبه .. معرفش طريقه أنا.. معرفش.

لم يخبره توفيق عن طريقة الاتصال بذلك الرجل المُنتمي لأقاربه.. الرجل الذي سيتولى تهريبه إلى مصر.. الذي جَمَعَ كل هذه الأموال لتكون له.. كاد يُمزِّقُ النُّقود التي أمامه.. نهض ثائرًا إلى داخل الكهف.. أخرجَ الجوال الخاصَّ به .. أوشك على إلقائه بشعلة النيران خارج الكهف .. لاحقه سمير صارخًا فيه.. لأول مرة يسمع صوته بكلامٍ مفهومٍ..

- استنى يا فاروووووووق.. استنى.

جحظت عينا فاروق وسط ثورتِه العارمة.. وضع جوالَه جانبًا واقترب من سمير ناظرًا بعينيه

متسائلًا:

- إنت بتتكلم؟

- أيوه.

- أنا مش فاهم حاجة.

قالها وهو يسقط على ركبتيه مُنهارًا.

أمسكه سمير من ذراعيه .. أنهضه بقوة.. نظر بعينيه ..

- إنت مش عاوز ترجع مصر؟ أنا هرجعك.

- إزاي؟

- تعالى.

جَذَبَه سمير لداخل الكوخ.. أزال تلك المَرتبة العريضة من مكانها.. حَفَرَ قليلًا بيديه.. ثمة سرداب سِرِّيٌ يظهر أمامهما الآن.. فَتَحَه سمير بحرصٍ شديدٍ.. أخرجَ صُندوقًا كبيرًا من ذلك المخبأ السِّرِّيّ.. فَتَحَه هو الآخر وسط ذُهول فاروق.. كان به بعض الملابس

وبعض الأوراق بالإضافة إلى لفافةٍ ورقيةٍ مربوطةٍ بخيطٍ سميكٍ.. لم تكن هذه الملابس سردينية مطلقًا.. كانت ملابس قِرشية مِمّا يطلقون عليها زيّ القِرش.. ملابسُ علِيةِ القوم ببربونيا.. طلب منه أن يرتدي أحدها سريعًا .. وارتدى هو ملبسًا آخر.. اصطحبه في ذلك التوكتوك الكبير في جوٍّ من الغُموض المُثير .. كان معه تلك اللفافة القابعة بالصندوق السّرّيّ..

سأله المرجوشي حائرًا:

- رايحين على فين يا سمير؟

ابتسم له سمير:

- على مصر

كان التّحدّي يطلّ من عينيه بقوةٍ .. برقت عينا المرجوشي غير مُصدّقٍ ما يحدث..

سالت دموع سمير أثناء قيادته للتوكتوك وسط الصخور الجبلية:

- ده اتفاق عملته مع قيادات الداخلية .. أعيش أخرس مقطوع اللّسان جوه السجن مقابل انهم ميتعرضوش لبنتي.

- إنت مخلف؟

- عندها 8 سنين دلوقتي .. حلفتلهم كل الأيمانات إن اللي كنت بكتبه في الجورنال مجرد كلام ملوش

أي مستندات عندى.. كلام من غير ورق .. صدقوني بالعافية بعد ما عذبوني لأكتر من 6 شهور

- طب طالما صدقوك .. سجنوك ليه ووافقتهم على قطع لسانك بالكدب ليه؟

- اللي زيي خطر عليهم .. كان لازم يخلصوا مني وعشان يضمنوا سكوتي هددوني ببنتي ومراتي.

- بس دول أكيد في خطر دلوقتي ..

- هم بره بربونيا بقالهم سنتين .. وبعيد عن أي خطر.

- فين؟

- أستراليا.

- عشان كده اشتغلت معانا في تجارة البربون؟

أشار برأسه بالإيجاب:

- لأني محتاج الفلوس عشان أقدر اهرب من هنا زيك بس أنا هروح أستراليا .. مش مصر.



صمت المرجوشي لحظاتٍ مُحاولًا استيعاب ما عرفه للتوّ .. سأله مُستفسرًا:

- وإنت إيه اللي كتبته في الجورنال وقلب عليك الدنيا كده؟

نَظَرَ له سمير متنهّدًا:

- إتفاقية إيشلا

- يعني إيه؟

- اتفاقية أو معاهدة .. سميها زي ما تسميها عملها ملك بربونيا مع رئيس وزراء إسرائيل.

شرد المرجوشي لحظاتٍ مُتذكرًا ما أخبره به توفيق عن هذه المعاهدة.

- أه توفيق كان قالي على حاجة زي كده.

- دي اتفاقية فيها بنود في منتهى الخطورة بتنص على إرسال عناصر مدربة من سجناء بربونيا

لنشر الفوضى الخلّاقة في كل الدول العربية وعلى رأسهم مصر ..

عاوَده ذلك الألم الشديد بمؤخُرةِ رأسه .. أمسكها بقوةٍ صارخًا:

- أنا مش فاهم حاجة.. مش فاهم حاجة.

- مش لازم تفهم دلوقتي. المهم لازم ترجع مصر وبسرعة..

كانا قد وصلا إلى طريق البحر .. ابتعدوا تمامًا عن المنطقة الجبلية.. مرّوا بأكثر من لجنةٍ للتفتيش.. بمجرد رؤيتهما بزِيهما القِرشيّ يُفتحُ لهما الطريق سريعًا.. اقتربا من بوابة الميناء.. كانت تحت حراسة مشددة.. لكنهما دخلا بمنتهى السهولة.. يبدو أن ذلك الزيّ له مفعول السحر .. وكأنه جواز مرور لأيّ مكانٍ يخطر على بالهما.. كانت أصوات السُفن تتعالى بالميناء.. نزلا من التوكوتك .. سأل سمير أحدَ المارّةِ:

- بقولك إيه؟

أجابه الشخص باحترامٍ شديدٍ مُتوتّرًا:

- أيوه يا فندم .. أؤمرني حضرتك.

- نبيل بيه فين؟

- في الأوضة اللي هناك دي.

أشار إليه إلى إحدى الغُرف المواجهة لرصيف الميناء..

أشار سمير للمرجوشي

- تعالى ورايا

دخلا الغرفة .. كان بها رجلٌ مُنهمكٌ في قراءة بعض الأوراق أمامه.. بمجرد أن رأى



سمير انتفض واقفًا ليحتضنه بشدة:

- يخرب عقلك يا سمير

- إزيك يا نبيل .. وحشتني والله.

- هم خرجوك ولا إيه؟

- لا هربت..

انقلبت تعبيراث وجهه إلى القلق.

- وجاي لحد هنا؟

- أنا عارف إنك عاوز تفضل بعيد.. لكن أنا

محتاجلك دلوقتي ..

- عاوز إيه يا سمير .. ومين الأستاذ ده؟

- مفيش وقت نحكي كتير.. إحنا عاوزين نتصدر.

- لفين؟

- أنا أستراليا .. وهو مصر.

- بس ده هيحتاج فلوس بالهبل.

- عارف وجاهزين.

- تمام.

أخرجَ حينها ورقة صغيرة كتب عليها بقلمه الأسود .. طلب منهما أن يلتقط لهما صورة كلًا على حدة .. مَدّ يده بإحدى الورقتين إلى المرجوشي وبجديةٍ شديدةٍ حدّثه:

- بكره الصبح تطلع على العنوان اللي في الورقة دي تسأل على المعلم منصور القط.. قوله أنا إبراهيم سعيد المناويشي.. إبراهيم سعيد المنااااويشي وهو هيقوم باللازم.

سأله المرجوشي مُندهشًا:

- مين إبرهيم سعيد المناويشي؟

وَكَزَه سمير بذراعه هامسًا:

- جرى إيه يا فاروق متركز أمال .. تمام يا نبيل وأنا؟

- لا إنت كمان تلت تيام تعدى عليا أسلمك الباسبور وأصدرك وقتي.

- يعني الفلوس معاك إنت؟

- بالنسبة لصاحبك مع منصور، وبالنسبة لك معايا أنا.

- تمام على بركه الله .. يلا سلامو عليكو.



انصرفا سريعا كما جاءا سريعًا.. عادا إلى كهفهما لآخر ليلةٍ معًا.. سيفترقان بعدها .. ومَن يعلم هل سيلتقي وجهاهما مُجدّدًا أم لا؟ أفرغا محتويات الجوال الخاص بتوفيق.. اقتسماهُ معًا.. احتضنا كلٌ منهما الآخر .. احتبَست دموعُ الفِراق بعيونهما.

- متشكر.. متشكر قوي يا سمير.

سلّمه لفافةَ الأوراق المدسوسة معه منذ بداية تلك الليلة..

- وصّل دي للمسؤولين في مصر.

- دي ال.. .؟

- أيوه دي صورة من إتفاقية إيشلا.. أمانة عليك توصلها .. لازم العالم كله يعرف خستهم ووساختهم لازم العالم كله يعرف أصل الحكاية.

احتضنَه مُجدّدًا قبل أن يُودّعه للأبد.. شَقّ ضوءُ الفجر طريقه ليُزيح ظلام اللّيل الشديد.. حَمَلَ جِوالَه الخاصّ وانصرف بالتوكتوك الكبير .. يبدو أن قصته قاربت على الانتهاء.. إنها الليلة الأخيرة ببربونيا.. على الرغم من الألغاز المتعددة التي لم يجد لها إجابة .. فإن عودته إلى وطنِه ستحسن من حالته حتمًا، ومن المؤكّد نجاته بحياتِه من هذه المدينة غريبةِ الأطوار .. سيعود إلى وطنِه بهذه اللفافة الصغيرة الكاشفة لألغازٍ كثيرة .. اللفافة المُحتوية على أسباب تلك الفوضى المنتشرة بالوطن العربي.. اكتشاف يفوق حالته بمراحل .. لغزٌ أكبرُ وأضخمُ من ألغازه الشخصية.. لُغزُ وَطَنٍ.. إنها.. إتفاقية إيشلا..



المعلم منصور القط

قادَ المرجوشي توكتوكه الكبير بصعوبةٍ .. أوشكَ الألمُ أن يعتصر مُؤخرةَ رأسِه.. تحامَلَ على نفسه كثيرًا.. زيُّهُ القرشيُّ سخَّر له الجميع.. وَقفَ بناصية ذلك العنوان الموصوف بورقتِه الصغيرة التي بيده..

مجموعة من الخيام مختلفة الأحجام، ألوانُها الزاهيةُ بهرته.. أطفال عرايا يلعبون هنا وهناك أمام عينيه.. النساء ذوات الحجم الثقيل يجلسن أمام خيامهنَّ منهنَّ مَن تطهي طعامها والأخريات مشغولاتٌ بمُتابعة أطفالهنَّ..

وطئَ المرجوشي بقدميه أرض ذلك المُخيم العشوائي المُختلف كليًا عن النظام المِعماري المبنى عليه بربونيا أو بالأحرى ما رآهُ فاروق منها .. وكأن ذلك المُخيم يقع خارج بربونيا .. تفهم من اللحظة الأولى أنه لفُقراء بربونيا أو لمن هم تحت خط الفقر .. أشكالُهم تُوحي بذلك.. يقفز الفقرُ من عيونِهم ليرجوك أن تمُدَّ له يدَك بالعَوْنِ .. ساكنو هذا المخيم مِمَّن يهابون العمل في البحر فاستسلموا للنجارة والحدادة كبديلٍ عن الصيد على الرغم من قِلَّةِ المَكسب المادّي لتلك المهن ببربونيا..

حَمَلَ فاروق جِوالَه على كتفه .. دسَّ لفافة أوراقه السِّرِّيَّة داخل ملابسه القِرشية.. بحَثَ عن أيِّ شخصٍ يسأله عن المعلم منصور القط..

اقتربَ من أحد الرجال المُنشغلين بطَرْقِ قِطَعِ الحديد المُلتهبة بمطرقةٍ ضخمةٍ أمام إحدى الخيام

- سلامو عليكو.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

تَرَكَ ما بيده بمجرد ملاحظة زيِّه القرشيِّ.. اعتدلَ وكأنَّه يُؤدِّي له التَّحيةَ العسكرية:

- أهلًا أهلًا يا حكومة .. أؤمر يا باشا.

سأله المرجوشي:

- المعلم منصور القط؟

تجمَّع حولهما عددٌ من الرجال متسارعين في إبداء خِدماتهم لصاحب ذلك الزِّيِّ الأزرق:

- طب اقعد اشرب شاي يا باشا.

- لا شاي إيه! نجيب حاجة ساقعة؟

- لا والله لازم يتغدى الأول.

- متشكر.. المعلم منصور القط؟



كرّر سؤاله عليهم مُجدّدًا.. سأله أحدُهم:

- الساعة معاك كام دلوقتي يا باشا؟

أجابه المرجوشي تلقائيًا ممسكًا بمُؤخرةِ رأسه .. كان الألم يزداد تدريجيًا على الرغم مِن تعايُشه معه بجدارةٍ:

- يعني يجيلها 9 كده.

- يبقى المعلم منصور تلاقيه بإذن الكريم على البحر دلوقتي

- فين يعني؟

أشار إليه أحدُهم على الطريق:

- شوف يا سعادة الباشا .. امشي على طول لا تحود يمين ولا شمال لحد ما توصل لشط البحر .. أول ما توصل اسأل هناك ألف مين يدلك.

- شكرًا

- مع ألف سلامة يا حكومة.

كان هؤلاء الفُقراء يُقدّسون كُلّ مَن تملّك السُلطة في هذه البلد.. أيّ شخص يرتدي هذا الزّيّ القِرشيّ يضعونه فوق رُؤوسِهم على الرغم من فقرِهم ومُعاناتِهم، وعلى الرغم أن أصحاب السُلطة ذاتهم السبب في هذه المُعاناة، ولكنه موروثٌ مُجتمعيّ لعينٌ منذ القِدَم في بربونيا .

تحرّك المرجوشي على قدميه في طريقه لشاطئ البحر.. استمعَ إلى تلك الأغنية التي أحبّها بشدة .. إنه يتذكّرُها جيدًا.. تلك التي غنّاها ذلك المطرب خفيف الظّلّ في حفل الصيادين .. الحفل المُنتهي بمأساة قتل عم أحمد.. ابتهج حين استمعَ إلى كلماتها بوضوح النابعة من سماعاتٍ ضخمةٍ على شاطئ البحر بصوت إسماعيل يس:

- متستعجبشي.. متستغربشي.. فيه ناس بتتعب ولا تكسبشي

وناس بتكسب ولا تتعبشي.. متستعجبشي.. متستغربشي.

كان أحد الشواطئ العامة ببربونيا.. لم يَرَهُ المرجوشي من قبل.. مكانًا لتنزُّه البُسطاء.. يقع في أطراف بربونيا .. ابتسم حين رأى لَونَ مظلّاتهم السّردينية اللون.. الرجال والشباب يرتدون ملابس داخلية فقط، والأعجب أنها سردينية اللّون أيضًا.. عجبًا لهذه المدينة الغريبة.. كتم ضحكاته وهو يخترق صفوفهم بحثًا عن المعلم منصور القط.. جلست النساء تحت مظلاتِهنّ تُرضِعنَ أطفالهنّ وتجهزنَ الطعام لأزواجهنّ في ذات الوقت.. لعبت الأطفال العرايا حولهنّ.. أشار أحدُ الشباب للمرجوشي على المعلم منصور تحت إحدى المظلات.. اقترب منه مُحييًا إيّاهُ .. جلسَ بجلبابه السّرديني وحوله أربعُ نساء من الحجم الثقيل.. يأكلن جميعًا من أوانٍ كبيرة أمامهنّ بها عددٌ لا نهائي من



المحشي.. أخذَ منصور نَفَسًا عميقًا من أرجيلته التي أمامه ناظرًا للمرجوشي

- خير؟

- حضرتك المعلم منصور القط؟

تفحّصه منصور جيدًا.. كان سريع البديهة.. أدرك من أسلوبه في الحديث أنه دخيل على زيّه القرشيّ.. هاربًا في ذلك الزيّ.. فأجابه:

- أؤمر يا فندي.

- أنا إبراهيم سعيد المناويشي.

- يا أهلًا .. يا أهلًا.. يا أهلًا. اتفضل اقعد يا أستاذ.. أهلًا بريحة الحبايب.

جلسَ المرجوشي بجوارِه مُحييًا نساءه الأربع.

- خد واجبك الأول.

ناوله أصبعًا من أصابع المحشي الكبيرة .. أصَرَّ أن يأكله:

- والله ما هو راجع .. أنا نبيل كلمني وكله تمام.

- الحمد لله.

قالها وهو يأكل أصابع المحشي اللذيذ.

نَظَرَ له منصور مُستفسرًا:

- أؤمرني.

تعجّب المرجوشي:

- مش بتقول كله تمام؟ ونبيل بيه كلمك؟

- أيوه قاللى إنك هتتصدر من عندي وبعتللى صورتك.. بس مقاليش على فين إن شاء الله ؟

- مصر إن شاء الله.

قالها المرجوشي بلهفةٍ واضحةٍ .. صُدِمَ المعلم منصور حينها.. أخذَ نفسَه العميق من أرجيلتِه ونَظَرَ له:

- مممم.. لازم مصر يعني؟ ميمشيش معاك جنوب أفريقيا؟

- لا مصر يا معلم.

- طب أوديك الهند الجو هناك حلو وهتنبسط صدقني

- لا مصر.

- الهند حلوة.



- مصر يا معلم .. مصر.

- يبني بلاش مصر.. فيها قلبان اليومين دول، والوضع هناك مش حلو الناس بتاكل في بعضيها.

كانت الأغنية قد انتهت .. نَظَرَ المعلم منصور لأحد الأطفال مُناديًا عليه:

- واد يا على.

- نعمين يا ابه.

- روح قوله يعيد الأغنية تاني.

- حاضر يا ابه.

نَظَرَ للمرجوشي مُبتسمًا:

- لا مُؤاخذة أصل كلنا هنا بنحب إسماعيل يس إلا هو عامل إيه؟

- هو مين؟

- إسماعيل يس..

- الحمد لله.

كان المَلَلُ قد تسرَّب إلى المرجوشي.. رَغِبَ بشدَّةٍ في إنهاء ذلك الحوار سريعًا والعودة إلى وطنه.. كان مُشتاقًا إلى ذلك ..

- يستاهل الحمد .. متاكل محشي.

- شكرًا يا معلم.

جَرَى مجموعةٌ من الأطفال العرايا تجاه المعلم منصور:

- أبه.. أبه.. أبه.

- عاوز إيه يا واد إنت وهو؟

- عاوزين كنتاكيز

- لا يا ابه عاوزين سانداي من ماكدونالدز.

- لا كنتاكي

- ساندااااااااااااااااااااي.

أخرجَ نقودًا من جيبِ جلبابِه السَّرديني وناولهم إيَّاها .. فانصرفوا فرحين:

- خدوا هيصوا.. هاتوا اللى انتوا عاوزينه بس بلاش السبايسي عشان البواسير لا مؤاخذه يا أستاذ .. العيال دول نعمة من ربنا .. أه والله.

قاطعَهُ المرجوشي:



- قلت إيه يا معلم؟

- في إيه؟

- في السفر.

أخذَ نفسًا عميقًا من أرجيلته مُتسائلًا:

- معاك المبلغ لامؤاخذة؟

أشار إليه المرجوشي إلى جواله:

- آه.

- تمام .. هاه استعنا على الشقا بالله.

نَهَضَ معه المعلم منصور:

- تعالى معايا يا فندى .. هات شوالك معاك.

اصطحبه لخيمةٍ صغيرةٍ بأطراف المُخيم .. كانت قريبة من توكتوكه الكبير.. مرًا وسط الخيام، كثيرون ألقوا التحية على المعلم منصور.. يبدو أنه يمتلك شأنًا كبيرًا في هذه المنطقة.. استلمَ منه الجوال.. أحصى نقودَه .. نظرَ له مُبتسمًا:

- شوف يا عم إبراهيم يا سعيد. عارف المينا؟

- آه عارفها.

- تمام .. بكره تاخد بعضك بلبسك الحلو ده على هناك.. هتعدى من البوابة عادى .. هتجيلي على رصيف 1 بدري.. قبل 7 الصبح.. هنزلك بطن مركب بضايع تبعي.. هتعديك على حدود مصر.. وهناك رجالتي هيستلموك في مركب صغير وهيسلموك في الإسكندرية وإنت بقه تعامل من هناك .. تمام يا ابه؟

- تمام.

- باسبورك هديهولك الصبح تخليه معاك يمكن أي حاجة مش متوقعة تحصل.. أهو تبقى مأمن نفسك وفي السليم عشان متتمسكش وتترحل تاني على هنا.. تمام؟

- تمام

- خليك بايت هنا لو عاوز.. الخيمة دي تبعي واعتبر تمنها وصل.

- شكرًا يا معلم.

- هبعتلك الصبي بتاعي يصحيك الصبح زيادة استحراص.. يلا أشوفك الصبح سلامو عليكو

- وعليكم السلام.

خَرَجَ المعلم منصور القط حاملًا جوالَ النُقود.. جلسَ المرجوشي بمكانه فَرِحًا بانتهاء

مأساتِه.. فرحتُه جاوزت آلام رأسه المُعتادة.. شَردَ في حالِه.. تساءلَ مُتعجِّبًا.. أليسَ من الغريب أنه لم يعد يرى ذلك المشهد المتكرر داخل رأسه؟ لم يعد يَرَى تلك الشخصيات المُختبئة بذاكرتِهِ وفصوص مُخِّه.. أين الصارخون بتلك الصيحة: برمودا؟ أين الفتاة المُحترقة؟ أين ذلك الرجل الكبير؟ على أيّ حالٍ .. سيتفرغ لحلّ تلك الألغاز بوطنِه مصر.. من المؤكد أنه سيجد إجاباتٍ لألغازه هناك..

غلبَه النَّومُ بمكانِه.. غَطَّ بنومٍ عميقٍ وكأنه لم ينم من قبل.. نامَ مُحتضنًا لفافته السِّرِيَّة.. تلك الاتفاقية المكتشفة.. نام مُنتظرًا صبيَّ المعلم ليوقظَه من نومه ليُودِّع شوارعَ بربونيا للمرة الأخيرة.. ليُودِّعَ تجربتَه المُثيرة.. تجربته التي لن يُصدِّقها أحدٌ.. لن ينسى كل هذه الوجوه التي رآها ببربونيا.. بدأ من عزيز شريف ذلك الصديق الوفي المقتول غدرًا.. مرورًا بزملاء زنزانة 66 .. حتى وجه ذلك العاشق للمحشي والشيشة .. وجه المعلم منصور القط.



بَث مُباشِرٌ

لم يستطع المرجوشي قيادةَ توكتوكه الكبير وسط ذلك الزِّحام الشديد.. عدد هائل من أهالي بربونيا يتراكمون على طريق الميناء في هذه الساعة المبكرة من صباح يومه الأخير ببربونيا.. تعجّب المرجوشي كثيرًا .. ترك توكتوكه وأسرع خُطاهُ مُخترِقًا هذه الكُتل البشرية غير المعتادة.. قلقًا أن تمرَّ الساعة السابعة قبل أن يصل لرصيف رقم 1 بالميناء .. العجيب أن صبيَّ المعلم منصور القط لم يأتِ له ليُوقِظَه كما كان متفقًا عليه.. همهماتُهم تتعالى لتمتزجَ بضوضاء شديدةٍ تخترقُ أذنيه.. تقذِفُه في بحر ألغازه مُتعالي الأمواج.. الأعداد تزداد كلما اقتربَ من الميناء.. وجوهُهم تنذر بمصيبةٍ كبيرةٍ .. بوابة الميناء بدون أمنٍ على غير العادة.. ازداد الشّكُّ بقلبِه .. تُرى ما تلك المُصيبة التي تجمَّع بسببها هؤلاء المواطنون؟ اقتربَ من رصيف الميناء المُتفق عليه المزدحم بشدة.. عدد من التكاتك الكبيرة مرتصٌ بعضها بجوار بعضٍ مكتوب عليها .. تليفزيون بربونيا وحدة البثّ المباشر.. عدد كبير من المذيعين وعدد أكبر من الكاميرات .. حاولَ الاختباء بعيدًا عن عدساتهم.. صَعقه ما سمع من ذلك المذيع الواقف بالقُرب منه أمام إحدى الكاميرات:

- حالةٌ من الذهول أصابت الجميعَ صباح هذا اليوم إثر اختفاء البحر لأبيض المتوسط تمامًا من شواطئ بربونيا بالكامل.

نَظَرَ المرجوشي تجاهَ رصيف الميناء مَذهولًا.. دقَّق نظرَه مُخترقًا تلك الصفوف المُحتشدة.. شيءٌ لا يُصدِّقُه عقلٌ .. سيصمونه بالمَجنون حين يقصُّ عليهم ذلك.. وقد يُودِعُونَه إحدى المَصحَّات النفسية.. أهالي بربونيا يتجولون حول الشُفن المائلة على جوانبِها ولا توجد قطرةُ ماءٍ واحدةٍ من ذلك البحر الضخم.

استكملَ المُذيعُ وَصفَ تلك المُصيبةِ الفُريدة:

- وهناك أنباءٌ عن اضمحلال مياه النهر واختفائها خلال ثمانٍ وأربعين ساعة.. كارثة كونية فريدة تُواجِهُ بربونيا وتُنذر باختفائها من الخريطة. كان معكم .. لطيف معلوف.. تليفزيون بربونيا .. القناة الأولى.

لم تكن تلك هي المرة الأولى لهذه الكارثة الكونية على وجه الأرض.. حدثت ببحر الآرال الواقع بين كازاخستان وأوزباكستان بآسيا الوسطى حين انحسرَ بعد أن كانت مِساحتُه مربع لأقل من عشرة بالمئة من مساحتِه.. كان ذلك بعدما قرَّرت الحكومة الروسية عام 1918 تحويل النهرين اللذين يصبّان بالبحر إلى الصحراء بهدف استغلالهما بالزراعة ممَّا أدى إلى انحسارِه بدءًا من سبعينيات القرن الماضي.. والآن جاء الدور على البحر الأبيض المتوسط..

لَعَنَ المرجوشي حظّه العاثِر .. لم يتوقّع هذه النهاية الدّراماتيكية لمأساتِه.. مَشَى كالمجنون وسط الأهالي المصدومين.. الحسرة والدموع تملأ عُيونَ الجميع.. امتلأت بهم شوارع بربونيا يندبون حظّهم.. ولولت النّساء بكل مكانٍ كمن مات لهنّ عزيز.. سيموتون جميعًا إن لم يكن من الجوع فمن العَطَش.. ضاع مَصْدَرُ رِزقِهم الوحيد .. ونَهرُهم مُهدّد بالانقِراض.

وَقَف أحدُ المذيعين ليستطلع آراءهم أمام إحدى الكاميرات التي انتشرت بكل شوارع بربونيا..

- ومِن متابعتنا للحدث الجاري معنا الآن من شارع قريب من النهر المُهدّد بالخطر.. السيد سمعان الخبير المائي المعروف .. أهلًا سيد سمعان.. إيه تحليلك للأزمة الراهنة؟

سمعان ذلك الرجل البالغ من العمر أرذله يتحدّث بمنتهى الثورة، وبأعلى صوتِه، وكأنه يصرُخُ عاليًا نادبًا هذه المُصيبة اللّعينة:

- مُصيبة.. إحنا في مصيبة كبيرة هننقرض زي الديناصورات.. هننقرض.. هننقرررررررررررررررررررض.

تَرَكَه وغاصَ بعيدًا وسط الحشود .. تمالَكَ المُذيعُ دموعَه:

- أيها السادة سنظلُّ معكم خُطوة بخطوة.. ابقوا معنا.

هامَ المرجوشي على وجهِه وسط شوارع بربونيا المُزدحمة بأهاليها الحزانى.. لم يَقْوَ على التفكير بأيّ شيء.. اقتربَ من تلك الشاشة الكبيرة بأحد الشوارع.. أغلبُ شوارع بربونيا امتلأت بشاشات التليفزيون الموضوعة للبثّ المباشر بذلك اليوم المشؤوم بناءً على أوامر من مَلِك بربونيا مباشرةً..

خرجَ على الشاشة أحدُ المذيعين بابتسامةٍ مُصطَنعة:

- أيُها السادة ننتقلُ الآن إلى بثّ مُباشرٍ لخِطاب جلالة المَلِك إسماعيل بباظ ملك بربونيا المُعظَّم.

ظَهَرَ المَلِكُ جالسًا على عَرْشِه بزيِّه القِرشيّ الأزرق.. سادَ الصَمتُ بشوارع بربونيا انتظارًا لحديثِه.. لعلَّه يُخبِرُهم بحَلٍّ لمُصيبتِهم.

- شعبي.. شعب بربونيا العظيم

أتحدّث إليكم اليوم في لحظةٍ فاصلةٍ في تاريخ مملكتنا الغالية، فهذه الأيام بلا شَكّ لحظاتٌ تاريخية من عُمر المملكة البربونية.. فكم عانينا طويلًا أنا وأنتم حتى أصبحت بربونيا مملكة يتحاكى عنها الجميع! أيُها الشعب العظيم.. متخافوش .. متخافوووووش.. أنا بقولكم متخافوش.. هنلاقيلها حل اصبروا وصابروا.. إن الله مع الصابرين.. اعملوا وأنتجوا فقد حان وقت العمل.. قد حان وقت العمل قد حان وقت العمل.. لا تقلقوا.. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



تعالت صرخات المواطنين بعدها عاليًا معترضين ..

- نعمل إيه ونتنج إيه؟

- هو كلام إنشا وبس.

- هنموت الله يخربيوتكم

ولولت النساءُ عاليًا.. كانت تلك هي المرة الأولى التي يرى فيها المرجوشي أهالي بربونيا يعترضون.. وليس ذلك فقط.. بدؤوا يتصارعون فيما بينهم على جراكن كبيرة من المياه ملؤوها من النهر .. بعضهم يختطِفها من الآخر، ويتصارعون عليها صِراعًا داميًا.. يقع بعضُها على الأرض وتنسكب منها المياه .. أصبحت المنطقة شبيهةً بساحة الحرب.. حرب بقاء.. حرب حياة.. انحسرت مياه النّهر على مدى البصر.. أحد المُذيعين يتحدّث من خلال إحدى الشاشات.

- تناشد الحكومة شعب بربونيا بضبط النفس والبعد عن ما تبقى من النهر لإعطاء الفرصة لتدارُك الموقف.

تكرّرَ ذلك الإنذار كثيرًا.. لم يُجدِ معهم إنذارَه.. ازداد الصّراع بينهم وكأنهم حيواناتٌ يفترس بعضُها البعض.. حاولَ المرجوشي يائسًا الفصل بين الرّجال المتصارعين دون جدوى..

هَبَطَ جنودُ الأمن المركزي بصيحاتِهم المميزة من تكاتك الشرطة الكبيرة.. صيحاتُهم ترجُّ المكان بأكملِه.. نَظَرَ المرجوشي ناحيتَهم بحذرٍ شديدٍ.. سوءُ حَظّه جعله يرى عن قُربٍ ذلك العميد الذي حقّقَ معه مُسبقًا.. العميد إبراهيم ممسك بميكروفون كبير يُطلق به إنذاره للجميع.

- كله يبعد عن النهر.. كله يبعد عن النهر.. كله يبعد عن النهر.

لم يستجِبْ له أحدٌ .. الصّراع دامٍ شديدٌ.. أشار العميد إبراهيم إلى جنودِه .. أطلقوا القنابل المسيلة للدموع بكمياتٍ غزيرة.. انتشرت بسرعة البرق بالمكان ليتحوّل لكتلةٍ من الضّباب الأعمى.. كرّرَ إنذارَه مراتٍ ومراتٍ:

- كله يبعد عن النهر.. كله يبعد عن النهر.. كله يبعد عن النهر.

كاد المرجوشي أن يختنقَ وسط المُنبطحين أرضًا وبعض المُصابين بتشنّجاتٍ وقتيةٍ وسط ذلك الضباب الكثيف والفوضى العارمة.. واستمرارًا لمسلسل حظّه العاثِر وَقَفَ المرجوشي وجهًا لوجهٍ أمام العميد إبراهيم.. تلاقت عيونهما.. تذكّره سريعًا.. صرخَ فيه قبل أن يجري هاربًا:

- اقف عندك.. اقف عندك.

فرّ المرجوشي بكل ما لديه من قوة.. فرّ وسط طلقات رصاص العميد إبراهيم القاتلة لمن حوله .. ازدادَ الرُّعبُ داخلَه .. نَظَرَ حولَه.. ثمة ماسورة كبيرة أقصى اليمين.. جرى



ناحيتها وفي لحظات ألقى بنفسه داخلها.. كانت موصلة لتحت الأرض.. إحدى مواسير المجاري.. سَقَطَ المرجوشي وسط بركةٍ من المياه الضَحلة .. رائحتُها كريهةٌ .. إنه أسفل بربونيا الآن.. نَظَرَ حوله.. حالة من الهدوء الحَذر.. يبدو أنها شبكة المجاري الخاصة ببربونيا.. نَهَضَ مُتذمِّرًا:

- الله يخربيت بربونيا على اللي فيها هو أنا أطلع من نقرة أقع في دوحديرة إيه النحس ده بس يا ربي أعمل إيه أنا دلوقتي طيب؟.

لعلها فرصة مناسبة ليلتقط أنفاسه بعيدًا عن ذلك الصراع الدامي بالأعلى.. عليه أن يُفكِّر عن وسيلةٍ أخرى لهُروبه من تلك البلدة اللَعينة.. وسيلة أخرى للهُروب من الجحيم.. ولكن كيف وكل الشوارع مرصودةٌ بتلك الكاميرات المُنتشرة بها .. إن بربونيا بالكامل مَنقولةٌ على الهواء مباشرةً.. بربونيا بأكملها في .. بَثٌ مباشِر.



تحتَ الأرض

كان المرجوشي مُحاطًا بمواسير مُختلفة الأحجام في كل مكانٍ.. العجيب أنها شفافة اللّون تُظهرُ ما بداخلِها ببراعة.. كان سائلًا أحمر اللّون يتدفّقُ داخلَها بسرعة عالية..
تعجّب المرجوشي ناظرًا للبِركَة التي سَقطَ بها .. مليئة بنفس ذلك السائل الأحمر اللّون..
أدركَ مِن الوهلة الأولى أنه سائل دمويّ .. نَهَضَ ناظرًا حوله مُحاوِلًا استكشاف المكان..
كانت الإضاءة خافتةً للغاية .. استمعَ المرجوشي إلى صوت موسيقى صاخبة عن بُعد..
نَظَرَ بعينيه تجاهَ مصدر الصوت.. حاولَ جاهدًا الرُؤية وسط ذلك الظلام الدامس.. هناك ممرٌ يبدو واضحًا أمامه.. تلمَّسَ جُدرانه مُخترقًا ظلامَه الوحشيّ.. تذكّرَ ذلك الكابوس الخاصَ بكهف الفتاة المحترقة.. ابتسمَ حينها ابتسامةً يائسةً.. هناك أحدٌ ما يَقِفُ عن قُربٍ.. دقّقَ النّظرَ.. إنها الفتاةُ الجميلةُ ذات العينين الزقاوين.. وَقفَتْ مُبتسمةً له كالملاك، وكأنها هبطت للتوِّ من السماء.. استدارت وانصرفت ببُطءٍ وكأنها تطلب منه مُتابعتها، نادى عليها:

- ياااااااااااااا.

تبِعها مُحاوِلًا الوصولَ لها.. كم يتوقُ إلى الحديث إليها كالمرة السابقة على شاطئ البحر.. كم يتوقُ إلى سؤالها عن شخصيتِها ولماذا تظهر له دائمًا وتختفي دون سابق إنذارٍ!

كلما غاصَ في ذلك الممرّ وراءها ازدادت حدة الموسيقى الصاخبة .. امتزجت الموسيقى بهمهمات وضحكاتٍ مجهولةٍ بعيدةٍ..

انتهى ذلك الممر فجأة.. اختفت الفتاةُ عن أنظارِه.. لم يُصدّقْ ما تراهُ عيناه.. ساحة ضخمة شاسعة مليئة بأشخاصٍ راقصين .. اخترقَ زِحامَهم بحذرٍ شديدٍ.. إنهم نفس الأشخاص الأقزام عِراض الجباه الذين كانوا يُطارِدونه دومًا في رأسه .. إنهم المُنادون بذلك النداء الغامض برمودا..

كانت الأضواء في كل مكان تتراقص مع رقصاتِهم.. أضواء حمراء اللون .. كانوا عُراةً إلا بما يستر عوراتِهم .. المواسير تتشابك بالأعلى ويتدفّق بها نفس السائل الأحمر بسرعة خاطفة.. استمعَ لصوتٍ أشبهَ بصوت ضربات القلب يتتابعُ على أذنيه بشكلٍ رتيب..

العجيب أنهم لم يعيروا له أيَ اهتمامٍ هذه المرة وكأنه غير موجود بالمرة..

ظهرت الفتاةُ مرةً أخرى بين صفوفِهم.. حاول المرجوشي مُلاحقاتِها.. كانت تختفي وكأنها تذوب وسط زحامهم الشديد.. تكرّرَ ذلك مرارًا وتكرارًا لكنه لم ييأس من

مُتابعتِها.. لاحظَها المرجوشي بابتسامتها الساحرة.. دخل وراءها أحدَ الممرات الجديدة.. ساد الظلام مرةً أخرى.. ابتعدت أصوات الموسيقى.. وَجَدَ نفسَه في ساحة جديدة أنوارها بيضاء، اختفت حينها الفتاة مرة أخرى .. احتشدَ بتلك الساحة نفس الأقزام الراقصين ولكنهم هذه المرة يرتدون ملابسهم سوداء اللون بالكامل.. لم يُصدِّق المرجوشي أن كل ذلك يقع تحت الأرض بربرونيا.. ساوره الشَكُ أنه داخل رأسه الآن .. ومن المؤكد أنه سيُفيق في أيِّ لحظةٍ مرةً أخرى ليجد نفسه داخل كابوسه الوحيد بباربونيا اللَّعينة.. كادت الحيرة أن تقتله .. اختلطت الكوابيس بالحقيقة، لم يعد يدري: هل هو في كامل وعيه أم أنه يغطُ في كابوس من كوابيسه المستمرة؟ وقفوا جميعًا يستمعون لرجل بمنتصف العمر يقف وراء منصة صغيرة .. كان يُلقي شيئًا أشبه بالشعر ناظرًا لرجلٍ ذي شَعرٍ أبيض جالس على كرسيٍّ ضخم مرصع بالذهب .. كان الكرسي الوحيد بتلك الساحة.. يبدو عليه الهيبة والوقار..

كانت تلك الساحة مُحاطةً بالحوائط الزُّجاجية من كل جوانبها .. ألقى الرجل قصيدتَه بفخرٍ شديدٍ:

- كراسي.. كراسى هي

واقع.. رمز.. سلطة..

كراسي هي انتظار.. لقاء..

راحة.. هي كل شيء

البعض.. لا يدخل بالموضوع

يدور.. هي تدور

البعض يشعر بالراحة..

كراسي ممزقة تفاجئك

تمزقك.. تقتلك.. تكتم أنفاسك

كراسي كالبشر..

كراسي.. من البشر

صفَّقوا له بشدة .. كان المرجوشي يخترق صفوفهم مُتعجبًا من ذلك المكان .. ناظرًا لذلك الرجل الوقور الجالس على كرسيه المُرصَّع بالذهب.. ابتسمَ له ذلك الرجل فجأةً وكأنه يراهُ.. اقتربَ منه أكثر.. أشار الرجل بيده فصمتَ الجميع.. نَظَرَ المرجوشي حولَه بحذرٍ شديدٍ.. الجميع ينظر له.. تحدَّث إليه الرجل مباشرةً:

- تعالى يا فاروق.

سأله متعجبًا:



- إنت تعرفني؟

- فاروق طلعت المرجوشي.

- ممكن أعرف إنتم مين؟ وأنا فين هنا؟

- إنت تحت الأرض.

- تحت الأرض؟ المفروض إن دي المجاري؟

تعالت همهمات الواقفين اعتراضًا على وصف المرجوشي .. أشار إليهم كبيرُهم فصمتوا جميعًا، نهض بعدها ووقف أمامه ناظرًا لأعلى بعينيه وبحدةٍ قال:

- أوعى أسمعك تقول كده تاني ..

- أسف .. بس عاوز أفهم.

عاد مرةً أخرى وجلس على كرسيه.. تحدّث إليه وأنصت الجميع بتأثرٍ شديد:

- من 60 سنة تقريبًا بربونيا كان بيحكمها ملك ظالم جبار.. جوع الناس.. ظلمهم.. قهرهم.. واللي كان بيتكلم يتخرس.. يتجلد.. ويمكن كمان يتقتل.. فضلت بربونيا تحت حكمه سنين طويلة .. وقتها كنا عايشين عادي وسط الناس.. وكان الجيش بيضُم كل فئات شعب بربونيا حتى الأقزام كان ليهم دور.

ابتسم حينها المرجوشي مُستهزئًا.. تابع الرجل حديثه باهتمامٍ:

- متستهونش بالقزم ده ممكن يعمل اللي متقدرش أنت تعمله.. في الوقت ده أتكون تنظيم سري جوه الجيش ضد حكم الملك التنظيم ده كان زعيمه الأميرلاي إسماعيل باباظ والأميرالاي تيمور غادى.. تيمور كان قزم صحيح بس كان ذكي جدًا وكان ليه دور كبير في نجاح الانقلاب

لكن إسماعيل طمع في المملكة وغدر بتيمور.. ومن ساعتها كل حاجه أتغيرت وأتحكم علينا نعيش هنا تحت الأرض .. لا نقدر نخرج بره ولا حتى نعترض.

- يعني انتم عايشين هنا؟

- من زمان وكيفنا حياتنا على كده متفتكرش إننا انفصلنا عن اللى بيحصل فوق إحنا عارفين كل حاجة .. شوف..

أشار إليه حينها إلى الجُدران الزجاجية التي حولهم.. تحوّلت إلى شاشات للعرض .. وكأنها موصّلة بكاميرات مراقبة تنقل لهم كل ما يجرى بالأعلى.. ما زالت الصراعات الدامية بين أهالي بربونيا من جانب وبين الشرطة من جانب آخر والقنابل المسيلة للدموع بكل مكان.

ابتسمَ الرجل وسط تعجُب المرجوشي:

- هيفضوا ياكلوا في بعض كده.. لحد ما يخلصوا وساعتها هنطلع نعيش فوق براحتنا.



سأله المرجوشي مُقتربًا منه .. يبدو أنه حان الوقت ليعرف إجابات ألغازه اللّعينة

- وعرفت اسمي منين؟

ضَحِكَ الكبير بشدةٍ وضَحِكَ معه الجميع .. أشار بعدَها بيده فصمتوا جميعًا:

- سؤال ساذج جدًا.. أنا هنا من على كرسيا ده أقدر أعرف كل حاجة.. أعرف إنت مين وإيه اللي جابك هنا.. وإيه اللي حصلك بالضبط.. أقدر أعرف إيه اللي بيدور في مُخك أكتر منك.

كانت الحيرة تفترس المرجوشي حينها.. لم يصدق أن ما يحدث أمامه حقيقي .. سأله بلهفة شديدةٍ:

- إزاي؟

ابتسم الرجلُ بعدما أشارَ تجاة شاشات العرض

فجأةً ظَهَرَ المرجوشي نائمًا داخل كوخ عزيز أثناء الليل وبجواره عزيز.. فَتَحَ فاروق فمَه حين رأى ذلك.. جحظت عيناه .. مرّت لحظاتٌ ودخل سمعة الأعور وذبح عزيز كاتمًا أنفاسَه وتركَه غارقًا بدمِه ..

تغيّر المشهد بتلك الشاشات لفاروق داخل زنزانتِه .. زنزانة 66 وهو يتحدث إلى زملائه وكأن كاميرا داخلية التقطتهم.. تكرّرَ العديدُ من اللّقطات التي عاشَها المرجوشي أمام عينيه.. تتابَعت أسئلته المُتلهفة لإجاباتِها:

- ليه سمعة قتل عزيز؟ وليه أنا هنا؟ إيه اللي جابني بربونيا؟ إيه اللي حصللي بالضبط؟ وليه ديمًا كنت بشوفكم جوه دماغي؟

ضَحِكَ الرجلُ كثيرًا قبل أن يُجيبَه

- إنت طمّاع جدًا

- أرجوك قولي الحقيقة

نَظَرَ له الرجل .. رَمَقه بنظرتِه الحادة .. سادت لحظاتٌ من الصمت القاتل.. نَطَقَ بعدها بجدّيةٍ:

- من أول الإنسان ما اتخلق وهو ليه عدو واحد متربص بيه بيبذل كل جهده عشان يدمره .. العدو ده هو إبليس.. إبليس اللي بنى مملكته وعرشه على سطح الميه في مثلث برمودا.

- برمودا.. عزيز قاللي كده.

- إبليس له أعوان كتير بينفذوا مخططه على الأرض بمنتهى البراعة .. ومن أعوانه المخلصين قبيلتين اسمهم يأجوج ومأجوج.. مفيش نبي من الأنبياء محذرش منهم.. كل الأديان السماوية نبهت البشر من شرهم لكن البني آدم نسّاي..



- أيوه إيه علاقة ده بيا؟

- الحكاية بدأت بشاب مصري سافر أمريكا يدور على رزقه .. لكن القدر ساقه لاكتشاف حقيقة مذهلة قلبتله كل حياته.. حولته لشخص مجنون في نظر الناس.. أخذ ولاده الاتنين وفضل يهرب طول عمره من بلد لبلد .. محوط عليهم .. غير اسمهم عشان يحميهم.. تعرف سماهم إيه؟

نَظَرَ المرجوشي له حائرًا.. استكملَ الرجلُ حديثه بجدِّيَة:

- يأجوج ومأجوج.. الراجل ده اكتشف الحقيقة اللي كتير غافل عنها .. الحقيقة اللي الكل مخدوع بعكسها.. الحقيقة اللي انت نفسك اكتشفتها من الولدين دول بعد ما نزلوا مصر وحققت معاهم بنفسك.. الحقيقة اللي كانت السبب إنهم يخطفوك ويرموك في البحر عشان تغرق.. لكن حظك إنك قدرت تقاوم الغرق لحد ما طلعت على شط بربونيا الحقيقة اللي خلتهم يشنقوا الولدين دول بعد ما اتخلصوا منك ومن رئيسك بالشغل..

- حقيقة إيه؟

- حقيقة يأجوج ومأجوج

- أنا مش فاهم حاجة.

- من آلاف السنين كانت القبيلتين المشؤومين دول عايشين شمال جبال القوقاز .. كانوا عايشين على السرقة والنهب من القبائل التانية اللي عايشة جنوب الجبال.. كانوا بيهجموا عليهم من الممر الوحيد بين الجبلين الفاصلين بين البحر الأسود وبحر قزوين كان فيه ملك عظيم اسمه ذو القرنين.. في إحدى رحلاته اشتكى ليه قبيلة كانت عايشة جنوب جبال القوقاز الملك ده بنى سد عملاق قفل بيه الممر الجبلي.. اتحبست يأجوج ومأجوج في الشمال.. حاولوا يهدموا السد مقدروش.. كانوا كل ما يحفروا فيه يرجع أجمد من الأول.. مرت سنين كتيرة قوى تتابعت الأجيال والشر بيتوارث في القبيلتين دول وفضل حلمهم بأنهم يهدموا السد ده جواهم وفي يوم وليلة انحسر بحر قزوين وساب مسافة كبيرة جنب جبال القوقاز.. المسافة دي قدروا يعدوا منها على مراحل .. واختلطوا بمكرهم ودهائهم بالقبيلة الموجودة وقتها بالجنوب .. قبيلة الخزر وفي أقل من جيلين قدروا يدوبوا وسطهم وأغلبهم بقوا قادة للقبيلة .. للأسف كل المسلمين بالعالم معتقدين إن سد يأجوج ومأجوج زي ما هو وإنه لسه كتير قوي على بال ما يتهد .. محدش أبدا ركز في حديث الرسول عليه الصلاة والسلام:

(لا إله إلا الله.. ويلٌ للعرب من شَرٍّ قد اقترب.. فُتِحَ اليوم من سدِّ يأجوج ومأجوج مثل هذه) وحلق بأصبعيه الإبهام والذي يليه محدش خد باله إن وقت الحديث ده هو نفس الوقت اللي انحسر فيه بحر قزوين.. وفي فترة قليلة بقت قبيلة الخزر قوة عظيمة صعبة الهزيمة حتى من أقوى الجيوش وقتها.. جيش المسلمين اللي هزم كل قوى العالم .. مقدرش عليهم في فتح المسلمين لأوروبا.. مقدروش يهزموهم واكتفوا بس بمملكة

الأندلس في الجنوب .. ذاع صيت مملكة الخزر وقتها جدا.. لكن يأجوج ومأجوج ماكتفوش بكده.. كانوا عاوزين يسيطروا على العالم كله.. قرروا إنهم يعتنقوا دين من الأديان السماوية للتخفي وراءه.. اختاروا الدين اليهودي ومن وقتها اتعرفوا باليهود الأوروبيين كان قبلها كل يهود العالم من أصل عربي.. وكان محكوم عليهم بالتشرذم في كل أرجاء الأرض ومتحرم عليهم دخول القدس متحرم عليهم القدس .. إلا في حالة واحدة.. حالة واحدة بس تخليهم يدخلوا القدس تاني .. حالة واحدة بس تخليهم يقيموا دولتهم تاني في القدس

- إيه هي؟

- بسم الله الرحمن الرحيم: (وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم لا يرجعون.. حتى إذا فُتِحت

يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَبٍ ينسلون) صدق الله العظيم. إزاي كل المسلمين مش شايفين الآية دي.. ملايين بيقروها كل يوم ومش فاهمينها وقدام عينيهم دولة إسرائيل اللي اتنشئت سنة 1984 بوعد بلفور .. الصفقة اللي عملها اليهود البريطانيين مع اليهود الأمريكان

- براحة عليا أرجوك.

- يهود قبيلة الخزر غزوا أوروبا بالكامل.. غزوا أمريكا وطردوا أهلها من الهنود الحمر.. قتلوا حوالى 95 مليون هندي أحمر .. أقاموا دولتهم على جثثهم.. وفي الحرب العالمية التانية خدوا وعد من بريطانيا .. بريطانيا الدولة العلمانية .. توعد بإقامة وطن يضم يهود العالم أجمع في القدس.. دولة علمانية بتوعد بإقامة دولة على أساس ديني.. وده اللي حصل فعلًا سنة 1984 وبكده اليهود الأصليين العرب دخلوا القدس اللي كانت محرمة عليهم بعد ما قدر اليهود المزيفين أو بمعنى تاني الأوروبيين أو بمعنى تالت بعد ما قدر يأجوج ومأجوج يرجعوهم تاني ليها وكل ده محصلش إلا بعد ما انفتح السد اللي لسه الكل مطمن إنه قافل عليهم وأمنهم شرهم.

أتكأ الرجل إلى الخلف وامتلأت عيناه بالدموع:

- إنت عرفت منين كل الحاجات دي؟ وأنا إيه علاقتي بكل ده؟ وليه عزيز إتقتل؟

- مقدرش أجاوبك على سؤالك الأول. إنت اللي لازم تجاوب.. دور جواك هتلاقي الإجابة واضحة زي الشمس .. إنما علاقتك بده.. إنك عرفت الحقيقة دي زي ما قولتلك.. وعزيز كان عضو في منظمة سرية ضد الملك .. كانت بتحاول تساعدنا من بعيد لبعيد .. المنظمة دي كان فيها ناس كتير في كل وظايف الدولة انضموا لينا في السر بعد الاتفاقية المشينة اللي مضاها الملك مع الصهاينة

- إتفاقية إيشلا؟

- بالضبط .. اتفاقية حقيرة من بنودها: تدمير كل الدول العربية بالفوضى الخلاقة.. زي مانت شايف فوق كده ببربونيا.. وهييجي اليوم اللي هنخرج فيه هييجي اليوم اللي هنطلع فيه على وش الأرض ووقتها هتكون حرب مصير بينا وبينهم

- مين؟

- عدونا الحقيقي.. الصهاينة.. يأجوج ومأجوج.

- والبحر والنهر؟

- مجرد وسايل لإشعال الفوضى .. دي تقنيات مَتطوّرة وصل ليها الصهاينة تقدر تعمل بيها مد وجزر بسهولة لمسافات بعيدة.

أمسك المرجوشي مُؤخَرة رأسِه بقوةٍ.. كان الألم يعتصرها بشدةٍ.. نَظرَ له مَصدومًا

- وليه مدبوحنيش مع عزيز وقتها؟

- كان لازم حد يشيل القضية وإنت كنت هتاخد إعدام كده كده جاسوسية بقه ومثبتة عليك تمامًا بس بقه القدر اتدخل تاني وخلاك تهرب.

جلس المرجوشي بمكانه مُنهارًا غير مُصدِّقٍ ما تسمعه أذناهُ.. ساد الصمتُ لحظاتٍ.. نَهَض بعدَها الرجلُ واقتربَ من المرجوشي.. نَظرَ بعينيه المصدومتين:

- إنت عرفت الحقيقة تاني .. محدش بيجيله الفرصة دي مرتين.. ودلوقتي جه دورك

- أعمل إيه؟

- لازم ذاكرتك ترجع ولو بالأمر.. لازم تفهم الناس الخطر جاي منين.. لازم يعرفوا مين العدو الحقيقي.. لازم الكل يشوف ويسمع ويعرف.. لازم.

تعالت صيحاتهم بذلك النداء المُعتاد المُرعب.

- برمودا.. برمودا.. برمودا.

كانت الحقيقة أكبر بكثير من سؤالِه الذي يتردَّد بداخلِه الآن.. هل ما يراه حقيقي أم أنه داخل رأسه فقط.. تتعالى أصواتُهم وتمتزجُ بأصوات دقَّات قلبه.

- برمودا .. برمودا.. برمودا..

تتدفَّقُ الدّماء حولَه بسرعةٍ رهيبةٍ في تلك المواسير المُعلّقة بأعلى.. وقفت حبيبته عن بُعدٍ تبتسم له ابتسامتها الساحرة.. ابتسامها طَوقُ نجاةٍ له.. حتى وإن كانت جثةً هامدةً.. حتى بعد أن فارقت الحياة تاركة إيّاه وسط تلك الدوامات الغامضة.. تاركة إياهُ في تلك الحياة المليئة بالتناقضات المُخيفة.. تعالت أصواتُهم بذلك الإنذار المُتكرّر لمصدر الشَّرّ المُحرك للعالم.. تعالت أصواتُهم من ذلك المكان الكائن تحت الأرض.. لربما يأتي اليوم وتتحرَّر العقول .. وترسو مركبُ الحقّ على ميناء الحياة.. تعالت أصواتهم كإنذار أخير من تلك المدينة البعيدة داخل كل إنسان.. صنيعة يأجوج ومأجوج .. مدينة



اللامعقول.. بربونيا.

* * *

- تمت بحمد الله-

د /عمرو البدالي